سلسلة كتب الدعوة والخطابة

في ظلال السيرة النبوية

(دروس وعبر)

أ.د/ أحمد عبد الهادي شاهين

أستاذ الدعوة ومقارنة الأديان في جامعة الأزهر

وعضو هيئة كبار علماء الجمعية الشرعية الرئيسية بالقاهرة.

من نور القرآن الكريم

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

سورة الذاريات الآية (٥٥).

في ظلال السيرة النبوية (دروس وعبر)

رقم الإيداع/ ٧٥٢٩ / ٢٠٢٢ بدار الكتب المصرية.

الرقم الدولي: 978-977-94-1175-0

الطبعة الأولى/ سنة ١٤٤٣هـ-٢٠٢٢م.

مقدمة

السيرة النبوية الشريفة متعة للعقل والقلب والروح جميعا، لأنها تتعلق بأحب عباد الله إلى الله ﷻ وخيرة عباده من خلقه، فمعرفة سيرته ﷺ ودراستها عبادة يتعبد بها المسلم إلى الله ﷻ ولذلك كان الصحابة ﭫ يعلمونها لأبنائهم، يقول سعد بن أبي وقاص ﭬ: (كنا نعلم أولادنا سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه، كما نعلمهم السورة من القرآن الكريم).

والسيرة النبوية هي الترجمة العملية للقرآن الكريم، والسنة النبوية، وهي حفلت بتاريخ النبي ﷺ من قبل مولده حتى لحوقه بالرفيق الأعلى، فهي تحكى كل شيء عنه، بصورة واضحة وصحيحة وواقعية، وبشيء من التفصيل والإسهاب، حتى لو قمنا بإحصائية حول الكتب التي كتبت عن سيرته ﷺ نجدها تقترب من المائة كتاب.

إن كل كتاب فيها له لون خاص، وطعم خاص، ومذاق خاص، لا يشاركه فيه غيره، وإن اتحد مع غيره في عنوان الكتاب، والعناوين الداخلية، لكن كل كاتب له بصمته الخاصة، وتحليلاته الشخصية، ورؤيته في عرض الأحداث وتناولها، والاستنباط منها.

وفي ظروف خاصة، توفر لي كتاب واحد في السيرة النبوية، وهو الرحيق، المختوم لصفي الرحمن المباركفوري الهندي، فقمت بقراءته وتلخيصه بتصرف، للاستفادة من الأحداث التاريخية في السيرة، ثم قمت باستخلاص أبرز وأهم الدروس والعبر، التي يستفيد منها المسلم في حياته المعاصرة، وعند توفر مصادر أخرى في السيرة يمكن الاستفادة منها، بإضافة بعض التفاصيل في الأحداث، أو الدروس والعبر المستخلصة إن شاء الله ﷻ.

إن أهم صورة برزت في شخصية سيدنا محمد ﷺ هي القدوة الصالحة الناجحة المؤثرة، قبل البعثة وبعدها، فقبل البعثة كان يُعرف بالصادق الأمين، وما انكشفت عورته أمام الناس قط، وما خالط الناس في لهوهم ولعبهم الذي يخرج عن الآداب والمروءة.

وبعد البعثة لا يستطيع أحد أن يسجل عليه موقفا سلبيا في مكة أو المدينة، وما أثاره خصوم الإسلام من شبهات حول شخصية، فكلها مزاعم وأباطيل، وهناك ردود علمية موضوعية قوية عليها، وإبراز ما كان يتمتع به من إيجابيات، في مختلف جوانب حياته كلها، في صورة حية ومؤثرة.

والسيرة النبوية المباركة يجد فيها القارئ بغيته من الأمثلة والشواهد المثالية، لأن شخصية النبي محمد ﷺ كانت شخصية جامعة شاملة، فالمعلم يجد فيها المعلم المثالي، الذي يقوم على تعليم أصحابه برفق ويسر، دون شدة، أو عنف، أو قهر، أو ضرب، أو إحراج، فكان نعم المعلم الناصح الأمين.

والمربي يجد في شخصيته ﷺ المربي الحصيف، الذي استطاع أن يربى أصحابه، وينقلهم من مستويات ضعيفة إلى مستويات عالية، قوية مشرفة، نقلهم من رعاة غنم، إلى قادة أمم، ومن أناس يعرفون بالبداوة والشدة والغلظة والخشونة، إلى أناس رحماء رفقاء، أصحاب رقة في القلوب، ودمعة في العيون، وسمو في الأخلاق، ونبل في السلوك.

والقائد والحاكم يجد في شخصية النبي ﷺ القائد الناجح، الذي يرفق برعيته، ويسوسها بالحكمة، ويقودها بالحب والرحمة، ويتعامل مع جنوده بالشورى، وينزل على رأيهم ويثنى عليه، ويحسنه ويعمل به إذا كان صوابا.

والزوج يجد في النبي ﷺ الزوج الوفي، الذي يحب زوجته ويخلص لها، ويذكرها بخير بعد وفاتها، كما فعل ﷺ مع خديجة ﵂ وحينما قام بالتعدد كان يعدل بين نسائه، ويسوي

بينهم في القسمة، وإذا أخطأت إحداهن كان يصوبها ويصحح لها، ويجعلها تصلح ما أفسدته، كما فعل مع عائشة ﵂ وكان يشاورهن وينزل على رأيهن إذا كان صوابا، كما فعل مع أم سلمه ﵂ وكان يمازحهن ويُدخل السرور عليهنَ ليسعدهن، فكان نعم الزوج الوفي الصالح لزوجاته، أحياء وأمواتا.

وإذا نظرت إليه ﷺ كأب أو جدٍّ، تجده صورة حسنة وسامية في أعلى صورها، فكان يحب أولاده ويعطف عليهن بعاطفة الأبوة الحانية، وكان يبكي عند فراقهم، وكان يحب سبطيه الحسن والحسين، ويحملهما على يديه ويقبلهم، ويحمل أُمامة بنت ابنته زينب على يديه أثناء الصلاة، رفقة وشفقة عليها من البكاء.

وإذا نظرت إليه كإنسان في معاملته لخصومه، فكان صورة عالية للوفاء بالعهد، فما خان عهدا كان طرفا فيه، وحينما ينتصر على عدوه في معركة كان يعامله على قدر جرمه وخطئه، وأحيانا يعفو ويصفح، كما فعل مع أهل مكة، حينما دخل فاتحا منتصرا متمكنا، وكان يمكن أن يعاقبهم بما شاء وهم المخطؤن، ومع ذلك عفا عنهم ﷺ وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

إن سيرة النبي ﷺ كلها مزايا، لأنها تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالنبوة والرسالة، واعتدل المسلمون في نظرتهم للنبي ﷺ فلم يبالغوا في وصفه، ولم يجحفوه حقه، وإنما امتثلوا قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة الكهف: ١١٠.

فهو إنسان من البشر، تميز عليهم بالوحي والرسالة، واصطفاء الله ﷻ له من بين العالمين.

لقد تأدب المسلمون مع نبيهم أحسن الأدب، فلم يرفعوا أصواتهم فوق صوته، ولم ينادوه باسمه مجردا، ويحفظون نسبه وأسرته الشخصية، ويعرفون صفاته الخلقية والخُلقية، ويتبعون هديه وسنتهﷺ ويقتدون ويتأسون به، ويملاؤن قلوبهم بمحبته، ويكثرون من الصلاة والتسليم عليه، ويسلمون عليه في صلواتهم، وأحيانا أمام قبره الشريف، لا سيما عندما يذهبون للصلاة في مسجده ﷺ.

وهكذا ينبغي أن نتعامل مع سيرته ﷺ وأن نعيش في ظلالها الوارفة، وأحداثها الممتعة، وأن نجنى ثمارها بالدروس والعبر المستفادة منها، وأن نرقى بأنفسنا إلى مستوى أصحابه، في تعاملهم معه، وحبهم له، وشغفهم به ﷺ.

فنسأل الله أن يرزقنا محبته، واتباع سنته، وشفاعته وصحبته يوم القيامة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله أولا وأخرا، الذي بنعمته تتم الصالحات.

❁❁❁

(١) حياة الرسول ﷺ قبل البعثة.

١. نسب النبي ﷺ وعائلته ومولده.

٢. أحداث ومواقف عَبر حياته قبل البعثة.

٣. دروس وعبر من حياته ﷺ.

❁❁❁

١. نسب النبي ﷺ وعائلته ومولده.

نسب النبي ﷺ: ينقسم نسب النبي إلى ثلاثة أجزاء، قسم متفق عليه عند كتاب السيرة، وهو من أول النبي إلى عدنان، وجزء كثير فيه الخلاف، ويبدأ من عدنان إلى إبراهيم، وجزء يبدأ من إبراهيم وينتهي إلى آدم، وهو منقول عن أهل الكتاب وهو متوقف فيه.

الجزء الأول هو: محمدٌ بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن سعد، بن عدنان.

عرفت أسرته بالهاشمية: نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف، وهو الذي تولى السقاية والرفادة، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وهو أول من سن الرحلتين الشتاء والصيف، تزوج بإمرأة تسمى سلمى بنت عمرو، من المدينة من

بني النجار، وأنجب منها شيبة الحمد وهو عبد المطلب – ومات بغزة في تجارة له هناك، ودفن بها، وتسمى غزة هاشم.

عبد المطلب: اسمه الحقيقي شيبة الحمد، أردفه عمه المطلب خلفه على بعير، بعدما أتى به من المدينة من عند أخواله بني النجار، ليتولى السقاية والرفادة بعد عمه، فلما رأه الناس قالوا عبد المطلب، فقال ويحكم هذا شيبة الحمد بن أخي هاشم، وكان سيداً مطاعا في قومه، له هيبة، وصاحب فضل وسخاء، حفر زمزم بعد رؤيا رآها، ووجد فيها سيوف ودروع وغزالين من الذهب، ووقع في حياته القصة المشهورة حادثة الفيل، حينما أراد أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة، فأرسل الله عليه طيراً أبابيل، فهلك جيشه، وهلك بعدهم عند العودة إلى بلده.

عبد الله بن عبد المطلب: والد الرسول ﷺ كان أحسن أولاد عبد المطلب، وأحبهم إليه وهو الذبيح – في قصة مشهورة ومعلومة – وكان النبي ﷺ يقول: (أنا ابن الذبيحين).

تزوج من آمنة بنت وهب من بني زهرة، وهي أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا، خرج في تجارة إلى المدينة فتوفى بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله خمس وعشرون سنة، توفى قبل ميلاد الرسول ﷺ بثلاثة أشهر، ورثته زوجته آمنة بأروع المراثي، خلّف خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية، اسمها أم أيمن بركة، وهي حاضنة الرسول ﷺ.

المولد: ولد الرسول ﷺ في شعب بني هاشم بمكة، صبيحة الاثنين التاسع من ربيع الأول عام حادثة الفيل، الموافق عشرون من إبريل سنة ٥٧١هـ.

قالت أمُّه، السيدة آمنة: (لما ولدته خرج من فرجي نور أضاء لها قصور الشام).

ووقعت بعض الإرهطات عند الميلاد، سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت نار المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة، بعد أن غاضت.

أرسلت أمه إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرا، ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكره، وأسماه محمدا، وختنه يوم سابعه، وقيل ولد مختونا.

وأول من أرضعته بعد أمه آمنه، ثويبة مولاة أبي لهب، وأرضعت قبله حمزة، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

٢-أحداث ومواقف عَبر حياته قبل البعثة.

مرضعته: أرضعته حليمة السعدية من بني سعد، وله إخوة من الرضاعة هناك، وكذلك عمه حمزة كان مسترضعًا في بني سعد، فكان عمه وأخوه من جهتين، ورأت حليمة كثيرا من العجائب في فترة رضاعته، من أول ما أخذته حتى عادت به.

شق صدره: بعدما تم فطامه، عاد إلى بنى سعد لينشأ في البادية، وفي السنة الرابعة من مولده، وقع حادث شق صدره، حيث استخرج جبريل قلبه وغَّسله، واستخرج منه علقة، وهى حظ الشيطان، ثم غَّسله بماء من زمزم، ثم لأمه، وأعاده

إلى مكانه، يقول أنس: (وكنت أرى أثر المخيط في صدره). وسجل الله الحادث في سورة الشرح في القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ سورة الشرح: ١. ثم ردته حليمة إلى أمه إلى أن بلغ ست سنين، فذهبت لتزور قبر زوجها في المدينة، وعند عودتها مرضت وماتت بالطريق، ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة.

كفالة جده: عاد به عبد المطلب إلى مكة، ومشاعر الحب في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم، حيث أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه جده، فكان لا يدعه لوحده، ويؤثره على أولاده، ويجلسه معه على فراش خاص به عند الكعبة، ويقول لأعمامه حينما يمنعون عنه الفراش، دعوا ابنى هذا، فوالله إن له لشأنا، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

ولما بلغ ثماني سنوات توفى جده عبد المطلب، فعهد بكفالة حفيده قبل وفاته إلى عمه عبد المطلب، شقيق أبيه.

كفالة عمه: كفل أبو طالب أبن أخيه محمدا ﷺ وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، يُصادق ويخاصم من أجله.

طلبت قريش من أبي طالب أن يستقى لهم بعد ما أقحط الوادي، فخرج ومعه محمد ﷺ وهو غلام، فأخذه وألصق ظهره بالكعبة، فأقبل السحاب وأغدق، وانفجر الوادي بالماء، وأخصب النادي والبادي، وقال أبو طالب:

وأبيض يستقى الغمام بوجه ∴ ثمال اليتامى عصمة للأرامل.

بحيرى الراهب: لما بلغ اثنتي عشرة سنة، خرج أبو طالب تاجرا إلى الشام، حتى وصل إلى بصرى، وكان بها راهب يسمى بحيرى، واسمه جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم، وأخذ بيد الرسول ﷺ وقال هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

وقال حينما أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجدا، ولا يسجدان إلا لنبِّي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، أسف من غضروف كتفه، مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وأكرم ضيافتهم، وطلب من أبي طالب أن يرده إلى مكة، خوفًا عليه من الروم واليهود.

حرب الفجار: وقعت في السنة العشرين من عمره ﷺ في سوق عكاظ بين قريش ومعهم كنانة، وبين قيس عيلان، وسُميت بهذا الاسم، لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وحضر محمد ﷺ هذه الحرب، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي.

حلف الفضول: على أثر حرب الفجار، وقع حلف الفضول في ذي القعدة، تداعت إليه قبائل من قريش، اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمى، لشرفه وسنة، وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه لنصرته، وشهد محمد ﷺ هذا الحلف، وقال عنه ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة: "لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ اللهِّ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت"سيرة ابن هشام ١/ ١٣٣.

وله سبب معلوم في قيامه، تفاصيله في كتب السيرة النبوية الشريفة.

حياة الكدح: كان محمد ﷺ في أول شبابه يرعى الغنم، في بنى سعد، ورعاها لأهل مكة على قراريط – أي عملة كان معمولا بها- وفي الحديث:" ما بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ، فقالَ أصْحابُهُ: وأَنْتَ؟ فقالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أرْعاها علَى قَرارِيطَ لأهْلِ مَكَّةَ" البخاري (٢٢٦٢) عن أبي هريرة. وحين شب عمل في التجارة، فكان يتجر مع السائب بن أبي السائب المخزومي، فانه خير شريك له، لا يدارى ولا يماري، ورحب به النبي ﷺ يوم الفتح فقال: مرحبا بأخي وشريكي.

وفي سن الخامسة والعشرين: تاجر إلى الشام في مال خديجة، حيث كانت ذات شرف ومال، تتاجر الرجال في مالها، وتضاربهم بشيء تجعله لهم، فلما بلغها عن الرسول ﷺ في صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فخرج مع غلام لها يسمى ميسرة، وربحت التجارة أحسن ما يكون، فأعجبت به، وبأمانته، ففكرت بالزواج منه.

زواجه بخديجة: حينما رجع النبي ﷺ إلى مكة من تجارة خديجة، ورأت فيه من الأمانة والبركة ما لم ترها في غيره، وأخبرها ميسرة بما فيه من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت فيه ضالتها المنشودة، وكان السادات يحرصون على الزواج منها فتأبى عليهم.

فحدثت ما بنفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، ففاتحته بالزواج من خديجة، فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة، وخطبوها له، وتم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بكرة، وكانت سنها أربعين، وهي أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا، وهي أول زوجة له، ولم يتزوج عليها في حياتها حتى ماتت.

أنجب منها ستا من الأولاد، القاسم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فأدركن الإسلام، وأسلمن وهاجرن، وأدركتهن الوفاة في حياته ﷺ سوى فاطمة، لحقت به بعد وفاته ﷺ بستة أشهر.

بناء الكعبة وقضية التحكيم: ولما بلغ خمسا وثلاثين سنة، قامت قريش ببناء الكعبة، تأثرت بالأمطار والسيول وعوامل التعرية، فتصدع بعض جدارنها، وأوشكت على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنيانها حرصا على مكانتها، واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها إلا طيبا، من حلال، وكانوا يهابون هدمها.

فبدأ الوليد بن المغيرة المخزومي، وتبعه الناس، وجزؤا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يختار بشرف وضعه في مكانه، واشتد النزاع أربع أو خمس ليال، حتى كان يتحول إلى حرب ضروس، واقترح أمية بن المغيرة المخزومي أن يحكّموا أول من يدخل عليهم من باب المسجد.

وشاء الله أن يكون محمداﷺ فلما رأوه هتفوا هذا الأمين محمد رضيناه، فلما أخبروه طلب رداءً، ووضع الحجر في وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعا بأطراف الرداء، حتى إذا وصلوا إلى مكانه، أخذه بيده فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف، رضى به القوم.

وقصرت بقريش النفقة، فأخرجوا من حهة الشمال نحوا من ستة أذرع، وهى التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض، وسقفوا البناء على ستة أعمدة، وصارت الكعبة ذات شكل مربع، كما أن الله حفظ نبيه من كشف عورته، أثناء نقل الحجارة في بناء الكعبة، فما رؤيت له عورة.

❁❁❁

٣-دروس وعبر من حياة الرسول ﷺ قبل البعثة:

١-نسب النبي ﷺ كان أشرف الأنساب، حيث ولد في أشرف البيوت وأزكاها، فلم يدخل في نسبه سفاح، فكان ينتقل من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء، وكان من خير البيوت والقبائل، فلم تستطع قريش أن تعيب عليه شيئا في نسبه، أو تطعن فيه.

٢-ولد النبي ﷺ في عام الفيل، وهو حادث معلوم ومشهور بين قريش وما حولها، فأراد الله أن يجعل لميلاد نبيه ﷺ معرفة وشهرة بين الناس، فاختار ميلاده أن يكون في هذا العام الذي حمى الله فيه بيته من الهدم، وفي ذلك لفت نظر الناس إلى أن البيت له رب يحميه، فحينما يرسل الله رسولا فينبغي أن يؤمنوا به، لأن مرسله هو حامي البيت.

٣-عشيرة النبي ﷺ وعائلته لها دور كبير في خدمة بيت الله الحرام، من السقاية والرفادة، فأصبح لها شرف كبير بين العائلات، وجعلها في موطن هيبة وطاعة، ومن أجل ذلك كانت قريش تهاب أن توقع أذى مباشر بالنبي ﷺ خوفًا من عائلته وعشيرته، فكانوا يهابون أبا طالب، وبني هاشم، لمكانة النبي ﷺ منهم، ومكانتهم في قريش.

٤-ولد النبي ﷺ يتيما فلم ير أباه، وماتت أمه عند السادسة، فأصبح يتيم الأب والأم، فتحمل مرارة ذلك وهو صغير، وكفله جده وهو في السادسة، ثم مات وهو ابن ثمان سنوات، وعهد لعمه أبو طالب بكفالته، فكان يعتنى به، ويفضله على أولاده، ويحميه صغيرا وكبيرا.

وقد رد له النبي ﷺ الجميل في كبره، حينما أخذ عليا ليكفله، لأن أبا طالب كان معيلا، وهذه النشأة جعلت النبي ﷺ صاحب قلب رحيم بالأيتام والضعفاء، والأرامل والمساكين، فكان يقول: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى).

٥-كان للنبي ﷺ في صغره عدة إرهاصات، منها ما كان عند مولده، ومنها ما كان في صغره، مثل حينما أخذه عمه عند الكعبة واستقى به، وسجود الحجر والشجر له في مكة، وفي رحلته للشام حينما رآه بحيرى الراهب، وضرب الله عليه النوم، فلم يسمر مع أقرانه، ولم تنكشف عورته عند حمله للحجارة أثناء بناء الكعبة، وحله لنزاع من يضع الحجر الأسود في موضعه بالكعبة.

فكانت عناية الله تحوطه وتمنعه، وكذلك ما حل بحليمة وحمارها ومراعيها من خير وبركة، حينما أخذته للرضاعة في ديار بني سعد، وكذا حادثة شق صدره في صغره وعمره أربع سنوات، وإخراج جبريل حظ الشيطان من قلبه، كل ذلك صوره من الإرهاصات قبل النبوة.

٦-كان محمد ﷺ تظهر عليه علامات النباهة والذكاء، ويتميز عن باقي أقرائه في كل شيء، وكان جده عبد المطلب يقول: إن ابني هذا سيكون له شأن عظيم، وكان يحوطه ويرعاه رعاية خاصة ليتمه، ولحبه له، فكان يسمح له بالجلوس على فراشه عند الكعبة، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يصنع، وكان يغمره بعاطفه الحب والأبوة عوضا عن أبيه.

٧-في معرفة الراهب بحيرى بأن هذا الطفل الصغير هو النبي الخاتم ﷺ وأنه سيكون رسول رب العالمين، ومعه من الأدلة والبراهين والشواهد على ذلك، دليل على أن أهل الكتاب كان عندهم علم مفصل بصفة النبي الخاتم ﷺ لكنهم رفضوا الإيمان به، لأنه جاء من خارج بني إسرائيل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ سورة البقرة: ١٤٦.

٨-اشتراك النبي ﷺ في حرب الفجار وهو شاب، حيث كان ينبل على أعمامه، فكان يضع لهم النبل في القوس، ويناوله لهم، وهذا دليل على أنه كان مشاركا في الأحداث العامة في قبيلته، وكان محاربا شجاعا لم يهب من الخصوم أو الموت، وكان

صبورا في الحياة، حيث تعلم ذلك من رعي الغنم، ومن مارس ذلك العمل يستطيع أن يسوس الناس ويقودهم نحو الخير.

٩-عمل النبي ﷺ في الرعي والتجارة، وضارب وشارك، وعمل في مال خديجة متاجرا لها قبل الزواج، ليعتمد على نفسه في تحصيل رزقه، واكتساب معيشته، فلم يكن عالة على عمه يطعمه ويسقيه، وإنما كان محترفا يعمل بيده، ويكدح في الحياة، ليحصل المال الحلال.

١٠-كما أنه عُرف بحسن الخلق، والصدق والأمانة في التجارة، فلم يعرف الكذب، أو الخيانة، أو الغش، أو التدليس، أو المكر والخديعة، وإنما حياته كلها كانت نقية بيضاء، خالية مما يشوبها من الآفات.

١١-كان محمد ﷺ ذكيا حكيما موفقا في عمله، وفي أدائه، فأعجبت خديجة به في أخلاقه وتجارته، فخطبته إلى نفسها على خلاف عادة النساء، فلم يكن يصلح إلا لها، ولم تك تصلح إلا له.

١٢-كما ظهر ذكاؤه، ورجاحة عقله، وحسن تفكيره وتدبيره، وقدرته على حل المشكلات المعقدة، حينما حل مشكلة الحجر الأسود لقريش، فقبل ظهوره كانت الحرب على وشك الوقوع، وبعمله الحكيم وتصرفه في الحل الذي قدمه ومارسه، نزع فتيل الحرب التي كانت ستأكل رجالا من الطرفين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ سورة البقرة: ٢٦٩. ❁❁❁

(٢) المرحلة الأولى والثانية من الدعوة.

١. في غار حراء، وانقطاع الوحي وتتابعه.

٢. الدعوة سرا ثلاث سنوات.

٣. الجهر بالدعوة.

٤. دار الأرقم بن إلى الأرقم.

❁❁❁

١. في غار حراء وانقطاع الوحي وتتابعه.

لما بلغ النبي ﷺ سن الأربعين، كانت هناك شقة عقلية بينه وبين قومه، حيث حُبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور، على بعد ميلين من مكة، وهو غار لطيف طوله أربع أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع، فيقيم فيه شهر رمضان، ويقضى وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءه من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك، وتصوراتها الواهية.

كان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل حياتهم، نقطة تحول لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.

لما بلغ الأربعين ﷺ بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمح، فمن ذلك أن حجرا بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حيث مضت على ذلك ستة أشهر، وهي جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة، ثم أكرمه الله بالرسالة، وأنزل الله جبريل بآيات من القرآن الكريم.

كان نزول الوحي يوم الإثنين لإحدى عشر ـ ليلة مضت من رمضان، وكان عمره أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، واثنتي عشرة يوما.

وفي حديث عائشة ﵂: (أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخْلُو بغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه-وهو التَّعَبُّدُ-اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قَبْلَ أنْ يَنْزِعَ إلى أهْلِهِ، ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها، حتَّى جاءَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقْرَأْ، قالَ: ما أنا بقارِئٍ،). البخاري (٣).

فترة الوحي: اختلفوا في مدة فتور الوحي على أقوال، والراجح أنها كانت عشرة أيام، وبقي الرسول ﷺ بعدها تعتريه الحيرة والدهشة، وفي البخاري: (أنه من حزنه عدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقى نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: (يا محمد إنك رسول الله حقا) فيسكن ذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع.

وعلة انقطاع الوحي ثم تتابعه، ليذهب ما كان وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العودة، فلما حصل له ذلك، وأخذ يرتقب مجيء الوحي أكرمه الله

بالوحي مرة ثانية، قال ﷺ: (جاوَرْتُ بحِراءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوارِي نَزَلْتُ فاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الوادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أمامِي وخَلْفِي، وعَنْ يَمِينِي، وعَنْ شِمالِي، فَلَمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا هو علَى العَرْشِ في الهَواءِ، يَعْنِي جِبْرِيلَ عليه السلام فأخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فأتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ ماءً، فأنْزَلَ الله قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ سورة المدثر: ١ – ٤. ومسلم (١٦١) عن جابر بن عبدالله.

وهذه الآيات هي مبدأ رسالته، وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي، وتشتمل على نوعين من التكليف: التكليف بالبلاغ والانذار، والتكليف بتطبيق أوامر الله على ذاته.

❁❁❁

٢-الدعوة سرا ثلاث سنوات:

بعدما نزلت آيات المدثر، قام الرسول ﷺ بالدعوة سرا، لأن طبيعة قومه جفاة غلاظ، ولا سبيل لهم لحل المشكلات إلا بالسيف، وكانوا متصدرين الزعامة الدينية في جزيرة العرب، فكانت الدعوة سرا لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم عليه، وعلى الدعوة وهي في مهدها.

وكذلك حتى يجد أنصارا يحملون عبء الدعوة معه، فبدأ بألصق الناس به، أهل بيته وأصدقائه، وكل من توسم فيهم الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، فأجابه جمع منهم عرفوا بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم، زوجته أم المؤمنين خديجة بنت

خويلد ﷺ ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه على بن أبي طالب، وكان صبيا يعيش في كفالته، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم الدعوة.

وأما أبو بكر فأخذ يدعو من يثق فيه من قومه، فأسلم على يديه، عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فكان هؤلاء النفر هم الذين سبقوا الناس، وهم طليعة الإسلام من الرعيل الأول.

ثم تبعهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مطعون، وأخوه قدامة، وعبد الله، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وخباب بن الأرت، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وخالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أمينة بنت خلف، ومن السابقين عبد الله بن مسعود الهذلي، وأم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى، زوجة العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبي بكر.

ووصل عدد السابقين في الإسلام إلى مائة وثلاثين رجلا وامرأة، منهم من أسلم قبل الجهر بالدعوة، ومنهم من أسلم بعدها.

الصلاة: ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة، وكانت قبل الإسراء، وكانت مرتين في اليوم، مرة قبل طلوع الشمس، ومرة قبل غروبها، حيث أتاه جبريل وعلمه الوضوء، وكانت إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا

بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبى ﷺ وعليا رضي الله عنه يصليان مرة، فكلمهما في ذلك، فلما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات،

كان الوحي ينزل ليبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنها رأي العين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور، وتغذى الأرواح، وتسمو بهم في أجواء السماء.

مر من عمر الدعوة ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي، لكن قريشا عرفت بها، وتحدث به الناس، فتنكر له بعضهم، واعتدوا على بعض المؤمنين، ولم يعتنوا كثير بها؛ لأن الرسول ﷺ لم يتعرض لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم.

❁❁❁

٣-الجهر بالدعوة:

حينما تكونت حول الرسول ﷺ جماعة من المؤمنين، تقوم العلاقة بينهم على الأخوة الإسلامية والتعاون، وتتحمل عبء الدعوة والرسالة وتباعتها، نزل الوحي على النبي ﷺ يكلفه بالجهر بالدعوة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ سورة الشعراء: ٢١٤.

ونزل في سياق ذلك قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، وقصة نجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون ومن من معه،

فكانت هذه القصة أمام الرسولﷺ والصحابة ﭫ لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد، حينما يجهرون بالدعوة، ويكونوا على بصيرة من أمرهم من البداية.

وقد اشتملت سورة الشعراء أيضا على حال المكذبين بالرسل، من قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ولوط وأصحاب الأيكة، وذلك عندما ذكرت أمر فرعون وقومه، ليعلم الذين يقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم، وليعلم المؤمنين أن حسن العاقبة لهم وحدهم.

بدأ النبي ﷺ بدعوة الأقربين من عشيرته، من بن هاشم، من بني عبد المطلب بن مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلا، فلما أراد أن يتكلم بادره أبو لهب فقاطعه بكلام رديء، فسكت النبي ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: (الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به...) فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامضي لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسى لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا.

وبعد تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد ذات يوم على جبل الصفا، ثم هتف: (يا صباحاه) وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادى بطون قريش، ويدعوهم قبائل، قبائل: (لَمَّا نَزَلَتْ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ علَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ-لِبُطُونِ قُرَيْشٍ-حتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أرْسَلَ رَسولًا لِيَنْظُرَ ما هُوَ، فَجَاءَ أبو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فَقالَ: أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا بالوَادِي تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ علَيْكُم؛ أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلَّا صِدْقًا، قالَ: فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَومِ، ألِهذا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ سورة المسد: ١ - ٢. البخاري (٤٧٧٠) عن ابن عباس.

ولما تم هذا الإنذار، انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي رد فعل، سوى موقف أبي لهب الذي واجهه بالسوء في القول فقط.

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح النبي ﷺ لأقرب الناس إليه، أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

ولما نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ سورة الحجر: ٩٤.

فقام يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، ويتلو عليهم كتاب الله،

ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ سورة الأعراف: ٥٩.

وبدأ يعبد الله أمام أعينهم، فكان ﷺ يصلي بفناء الكعبة نهارا جهارا، وعلى رؤوس الأشهاد، ونالت هذه الدعوة مزيدا من القبول، ودخل الناس في الإسلام واحدا بعد واحد، وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل هذا، وساءهم ما كان يبصرون.

استخدمت قريش عدة أساليب شتى في مجابهة الدعوة في مهدها منها:

١. كف الحجاج عن استماع الدعوة.

٢. السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب التضحيك.

٣. إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة.

٤. الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن الكريم.

٥. الاضطهادات والتعذيب.

٦. المقاطعة العامة والحصار في شعب أبي طالب.

٧. دار الأرقم بن أبي الأرقم.

اتخذ النبي ﷺ خطوتين حكيمتين أمام هذا الاضطهاد، كان لهما أثر في تسيير الدعوة، وتحقيق الهدف منها وهما: اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزا للدعوة، ومقرًا للتربية، والثاني: أمر المسلمين بالهجرة للحبشة.

أولاً: كانت هذه الدار بعيدة عن أعين المشركين، وكانت في أصل الصفا، كان النبي ﷺ يجتمع فيها مع الصحابة ﷺ سرا، يقرأ عليهم القرآن الكريم، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويؤدوا عبادتهم وأعمالهم، ومن يدخل في الإسلام يلتقي مع الرسول ﷺ هناك دون علم المشركين.

ولو التقى النبي ﷺ بهم جهرا لوقع الصدام بينه وبين قريش، فذكر ابن إسحاق: (أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سرا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص ﷺ رجلا فسال دمه، وكان أول دم أهريق في الإسلام).

فلو تعددت المصادمة لأفضت إلى تدمير المسلمين، فكان من الحكمة السرية والاختفاء، فكان عامة الصحابة ﷺ يخفون إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم، أما الرسول ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني قريش، لا يرده عن ذلك شيء، ولكن يجتمع مع المسلمين سرا نظرا لصالحهم وصالح الإسلام.

❁❁❁

(٣) أساليب المشركين في مواجهة الدعوة.

مقدمة.

١. السخرية والاستهزاء.

٢. إثارة الشبهات حول النبي ﷺ.

٣. الحيلولة بين الناس وبين سماع القرآن الكريم.

٤. الاضطهادات.

٥. المقاطعة والحصار.

❁❁❁

مقدمة.

الإسلام يواجه من اللحظة الأولى حربا شرسة، وذلك حينما جهر النبي ﷺ بالدعوة، حيث وقف أمامه عمه أبو لهب، وقال تبالك يا محمد سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فوقف أمامه أقرب الناس إليه، ثم بمرور الوقت وقفت أمامه قريش كلها، واستخدموا عدة أساليب في مواجهة النبي ﷺ ودعوته، وهذه الوسائل تتكرر وتتطور عبر التاريخ، لكن أساسها يبدأ من قريب، ومن المعارضين السابقين للأنبياء جميعًا، ومن ثم إذا واجه الداعية شيئا من هذه الأساليب فلا يحزن، فليس هو بدعا من الدعاة، وإنما هو يسير في موكب الأنبياء والمرسلين.

❁❁❁

ومن صور أساليب قريش في مواجهة الدعوة والداعية ما يأتي:

١-السخرية والاستهزاء:

والمقصود بالسخرية أن ينالوا من النبي ﷺ والصحابة ﷺ بألسنتهم، فوصفوا النبي ﷺ بالجنون والسحر، وكانوا يضحكون من الصحابة ﷺ ويصفونهم بالضلال، ويغمزونهم بألسنتهم في مجلسهم، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك كله في عدة مواضع في القرآن الكريم منها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ سورة الحجر: ٦. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ سورة القلم: ٥١. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ سورة ص: ٤. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة المطففين: ٢٩.

ولقد تركت هذه السخرية والاستهزاء شيئا من الضيق في صدر النبي ﷺ حتى وجهه الله ﷻ إلى العلاج الذي يزيل هذا الأثر من الصدر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ سورة الحجر: ٩٧ – ٩٩.

كما تكفل الله بحفظ نبيه من الاستهزاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ سورة الحجر: ٩٥.

وهذا الاستهزاء كان سُنة متبعة مع الأنبياء السابقين، ومن ثم ما يتعرض له النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم ليس جديدًا ولا غريبًا في دعوة النبي ﷺ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الأنعام: ١٠.

وبعد الجهر بالدعوة بعدة أشهر، وقبل قدوم موسم الحج، اجتمعت قريش في أن تتفق على كلمة واحدة يبلغونها لوفود الحج، عن رأيهم في محمد ﷺ فرفضوا الجنون والكهانة، واتفقوا على السحر، وقالوا هذا أقرب إلى حالته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة المدثر: ١٨ – ٢٥.

وحاليا يصف خصوم الدعوة الدعاة المصلحين بالتطرف والغلو، والضلال والتضليل، والتزييف للحق والحقيقة، وتوظيف الدين للسياسة، والطمع في الكرسي والحكم.

❁❁❁

٢-إثارة الشبهات حول النبي ﷺ ودعوته:

لقد أكثرت قريش من إثارة الشبهات، وتفننوا فيها، حتى أصبحوا خبراء في ذلك، وتكون هذه الشبهات حائط صد للدعوة عند العوام، وحاجزا عن التفكير والتدبر، فقالوا عن النبي ﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ سورة

النحل: ١٠٣. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ ﴾ الفرقان: ٤. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ﴾ سورة الفرقان: ٥.

ووصفوه بالشعر والكهانة، وأنه يتخيل المعاني ويصوغها في كلمات بديعة، حيث يقدمها له شيطان من الجن، فرد الله عليهم بقوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ سورة الشعراء: ٢١٠-٢١١.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ سورة الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣.

والقرآن الكريم يرد عليهم ردا قويا واضحا في كل شبهة من هذه الشبهات السابقة.

ومن شبهاتهم حول الرسول ﷺ استبعادهم أن يكون الرسول ﷺ بشرا مثل باقي البشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ سورة الفرقان: ٧.

ورد القرآن الكريم عليهم بما يعتقدونه من نبوة موسى وما قبله من الأنبياء.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ سورة الأنعام: ٩١.

واستكثروا الرسالة على هذا اليتيم المسكين الفقير، كيف يصطفيه الله للرسالة، ويترك كبار وأغنياء مكة والطائف، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الزخرف: ٣١.

كما استكثروا النبوة على رجل من وسط الناس، متواضع في كل شئونه، وهم يريدونها أن تكون مثل ملوك الدنيا، يمشون في موكب من الخدم والحشم، ويتوفر لهم أسباب الحياة والنعيم والرفاهية، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة الأنعام: ٨. وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ سورة الفرقان: ٧.

والقرآن الكريم رد على ذلك بأن بين لهم أن الرسول ﷺ مهمته البلاغ الواضح المبين للرسالة، ولكل الناس، ولو كان ملكا فكيف يتعامل مع الضعفاء والعامة وجمهور الناس.

والداعية في كل عصر لا يخلوا من تعرضه لإثارة الشبهات حوله، تشويها لسمعته، وصرف الناس عن السماع له، ووضع حاجزا بينه وبين المدعوين، فأحيانا يقولون إنه يتبع دولة معادية للإسلام، وتارة يقولون يأتيه تمويل من خارج البلاد، وأحيانا يقولون إنه يتجسس لصالح دولة معادية، والقرآن الكريم قال عن النبي محمد ﷺ حينما اتهموه بما ليس فيه مثل باقي الأنبياء، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ

طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة الذاريات: ٥٣ – ٥٥.

❁❁❁

٣-الحيلولة بين الناس وبين سماع القرآن الكريم:

يعلم المشركون جيدا أن القرآن الكريم له أثر نافذ في قلب كل من يستمع إليه، لذلك كانوا يحولون بين الناس وبين سماع القرآن الكريم، فكانوا يبعدون الناس عن الرسول ﷺ حتى لا يسمعوا القرآن الكريم منه، ويطردونهم من عند الكعبة حينما يجدونه يصلى، ويحذرون الزائرين من خارج مكة من سماعه، ويثيرون الضوضاء والغناء حوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ سورة فصلت: ٢٦. ولم يتمكن النبي ﷺ من قراءة القرآن الكريم عند الكعبة إلا في السنة الخامسة من البعثة.

وكان النضر بن الحارث يتعلم قصص الفرس، وسيرة ملوكهم، ويقصها على الناس، بعد أن يقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن الكريم، ثم يقول: (بماذا محمد أحسن حديثا مني).

وقيل كانت عنده قينة قد اشتراها، وحينما يسمع بأحد يريد الإسلام يأخذه إلى قينته، ويقول أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد ﷺ وفيه نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ سورة لقمان: ٦.

فالقرآن الكريم له تأثير قوى، في قلب وعقل ونفس كل من يستمع إليه، سواء كان عربيا أو أعجميا، لأنه كلام الله خالق الإنسان، فهو يخاطب أصحاب الفطر السليمة، وينفذ إلى أعماقهم، فيتأثرون به، ويتجاوبون معه.

ولذلك واجه القرآن الكريم حربا ضروسا منذ أول يوم نزل فيه إلى يومنا، وسوف تستمر إلى قيام الساعة، الحرب مستمرة على القرآن الكريم ومعانيه وتفسيره العملي، الذي يحول الحياة إلى حركة دائبة، ينسجم فيها الإنسان مع الكون من خلال منهج الله ﷻ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ سورة البقرة: ٢١٧.

❁❁❁

٤-الاضطهادات:

حينما لم تُجد هذه الأساليب السابقة، لجأ المشركون إلى الاضطهادات والتعذيب والتنكيل، فكان رئيس كل قبيلة يعذب من وآلى له من قبيلته، وكل سيد يعذب عبيده، فلم يعلموا بأحد دخل الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال.

كان أبو جهل إذا سمع برجل أسلم، وله شرف ومنعه في قبيلته، أنبه وأخزاه، ووعده بالخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.

كان عمَّ عثمان بن عفان ﷺ يلفه في حصير من ورق النخيل، ثم يدخنه من تحته حتى يختنق.

ومنعت أم مصعب بن عمير ﷺ عنه الطعام والشراب، وأخرجته من بيته حتى تخشف جلده.

وكان صهيب بن سنان ﷺ يعذب حتى يفقد وعيه، وهو لا يدري ما يقول.

وكان بلال بن رباح ﷺ يضع سيده أميه بن خلف حبلا في عنقه، ثم يسلمه للصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى أثر الحبل في صفحة عنه.

وكان أمية بن خلف يجلسه في حر الشمس، ويضربه بالعصا، ويمنع عنه الطعام والشراب، ويطرحه على ظهره، ويضع عليه صخرة عظيمة، ويقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول أحد أحد. ثم اشتراه أبو بكر الصديق ﷺ وأعتقه.

وهذا عمار بن ياسر وأبوه وأمه ﷺ فكان أبو جهل يعذبهم في بطحاء مكة، فمرَّ بهم النبي ﷺ وهم يعذبونه فقال صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

وطعن أبو جهل سمية بنت خياط (أم عمار) ﷺ بحربه في قبلها فماتت وهي أول شهيد في الإسلام ومات زوجها تحت التعذيب.

وعذب عمار ﷺ عذابا شديدا حتى أكرهوه على سب محمد ﷺ فوافقهم فأنزل الله قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ سورة النحل: ١٠٦.

وكان أبو فكيهة واسمه أفلح مولى لبنى عبد الدار، كانوا يخرجونه في الحر الشديد، وفي رجليه قيد من حديد، ويجردونه من الثياب، ويطرحونه في الرمضاء، ويضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، ولم يزل يعذب هكذا حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، واشتراه أبو بكر ﷺ وأعتقه.

وكان خباب بن الأرت ﷺ (مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية) وكان حدادا، فكانت تأتي بالحديد المحمي فتجعلها على ظهره ورأسه ليكفر بمحمد، فلم يزده ذلك إلا إيمانا وتسليما.

وكانت زنيرة ﷺ أَمة رومية أسلمت فعذبت في الله ﷻ وأصيبت في بصرها حتى عميت ورد الله عليها بصرها، وقال قريش هذا بعض سحر محمد.

وكان ممن عذب أم عبيس ﷺ جارية لبني زهرة، وجارية عمر بن نوفل من بني عدي، والنهدية وابنتها، وعامر بن فهيرة، واشتراهم أبو بكر ﷺ وأعتقهم وفيه نزل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الليل: ١٧ – ١٨.

وأما بخصوص الرسول ﷺ فكانت تتعاظمه نفوس الأعداء، ولا يجترئ عليه إلا أراذل الناس وسفاؤهم، وكان في منعة عمه أبي طالب.

اختارت قريش معه سبيل المفاوضات، بالتهديد الخفي من خلال عمه أبي طالب، فساموه على أن يسلمه لهم، فردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه، ثم راجعت أبا طالب بأسلوب أغلظ وأقسى، فبعث عمه إليه، وظن النبي ﷺ أن عمه خاذله،

وضعف عن نصرته، فقال: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه).

وساوموه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، ويسلم لهم محمدا ليقتلوه، فقال والله لبئس ما تساوموني، أتعطوني أبنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدا.

ولما فشلت المساومات والمفاوضات، لجأت قريش إلى الاعتداءات على الرسول ﷺ.

كان أبو لهب قد زوج ولديه عتبه وعتيبة، بنتي رسول الله ﷺ رقية، وأم كلثوم، قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة، حتى طلقاهما.

ولما مات عبد الله الأبن الثاني للرسول ﷺ ذهب أبو لهب للمشركين يخبرهم بأن محمدًا صار أبترًا.

وكان أبو لهب يتجول خلف النبي ﷺ في الأسواق، وفي موسم الحج ويكذبه، وأحيانا يضربه بالحجارة حتى يدمى عقباه.

كانت أم جميل أروى بنت حرب، امرأة أبو لهب، أخت أبي سفيان، تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلًا، وتنال منه بلسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، ولذلك سماها القرآن الكريم بحمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها من قرآن، ذهبت للنبي ﷺ عند الكعبة، وبجواره أبو بكر رضي الله عنه فجاءت معها حجارة بيدها، وقالت يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني إنه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر، وقد أخذ الله ببصرها، فلم تر النبي ﷺ.

وكان أبو لهب جار النبي ﷺ فكان بيته ملتصقا به، وكان كغيره من الجيران، يؤذون النبي ﷺ مثل الحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، فكان أحدهم يحمل سلا جزور ويطرحها عليه وهو في صلاته، فيخرج بها النبي ﷺ على بابه، ثم يقول: (يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق).

وفعل معه عقبة بن أبي معيط مثل ذلك، وهو يصلى عند الكعبة، وهم يضحكون، حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها فطرحته عن ظهره، ثم رفع رأسه، وقال: (اللهم عليك بقريش ثلاث مرات). ثم سمى فقال: (اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط). فكانوا صرعى في القليب يوم بدر.

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولمزة، وفيه نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ سورة الهمزة: ١. وطلب أبي بن خلف من صديقه عقبة بن أبي معيط، بعد ما سمع القرآن الكريم مرة من النبي ﷺ طلب منه أن يتفل في وجه الرسول ﷺ ففعل.

ونال الأخنس بن شريق الثقفي، من الرسول ﷺ فوصفه بالجنون، فوصفه القرآن الكريم بتسع صفات، كلها حقيقية فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة القلم: ١٠ – ١٥.

وكان أبو جهل يسمع القرآن الكريم أحيانا من الرسول ﷺ ثم يؤذي الرسول ﷺ ثم يذهب فخورا مختالا بما فعل من الشر، كأنه لم يفعل شيئا، فنزل فيه قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة القيامة: ٣١-٣٢.

وكان قد هدد النبي ﷺ بعدم الصلاة عند الكعبة عدة مرات، فأغلظ له النبي ﷺ وأنتهره، فقال: بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا، فأنزل الله فيه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ سورة العلق: ١٧ – ١٩.

وذهب مرة ليطأ على رقبة النبي ﷺ ويعفُّر وجهة وهو يصلى، فرجع ينكص على عقبيه، ويتقى بيده، ثم قال إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا).

هذه عدة صور ونماذج وأمثلة، لما تعرض له الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم في صدر الإسلام في مكة على أيدى مشركي قريش، ما يقرب من عشرة أعوام، وهم صابرون محتسبون يستعذبون العذاب في سبيل الله، وحمل الرسالة والدين لمن

بعدهم، فلقد تحملوا كثيرا، وصبروا كثيرا لينالوا الأجر والثواب، ويكتب الله لهم النصر والتمكين.

فإذا أصاب المسلم شيءٌ من الابتلاء في دينه، فليعلم أنَّ من هو خير منه، تعرض لما هو أشد من ذلك، فحياة النبي ﷺ كلها ابتلاء، والصحابة ﷺ في مكة والمدينة كانت حياتهم كلها ابتلاء، فهي سنة من سنن الله في الدعوات، بل سنة في حياة البشر جميعا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ سورة العنكبوت: ٢ – ٣.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة العنكبوت: ١٠.

وقد بين الله في القرآن الكريم أن الابتلاء والتمحيص، سبب للنصر والتمكين، وهو طريق الجنة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ سورة البقرة: ٢١٤.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ سورة آل عمران: ١٤٢.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ سورة آل عمران: ١٨٦.

فحينما يقف المسلم المعاصر على ابتلاءات النبي ﷺ والصحابة ﷺ يستقل ويستصغر ما نزل به من اضطهاد وبلاء، وفي الحديث قال ﷺ: (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهم). صحيح الجامع (٩٩٦).

❁❁❁

٥-المقاطعة والحصار:

اجتمعت قريش في ضيافة بني كنانة، من وادي المحصب، وتحالفوا على بنى هاشم، ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم، حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق، ألا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموه للقتل.

عُلقت الصحيفة في جوف الكعبة، وانحاز بنو هاشم مؤمنهم وكافرهم، وحبسوا في شعب أبي طالب، إلا أبا لهب، وقطعت عنم الميرة والمادة، حتى أكلوا أوراق الشجر والجلود، وكان النساء والأطفال يتضاغون من الجوع، ولا يصل إليهم شيء إلا سرا، وكان عمه يُغِّير له مضجعه، حفظا له ممن يترصده.

مَّر ثلاثة أعوام على المقاطعة، ثم سعى في نقض الصحيفة من كان كارها لها، وكان القائم بذلك هاشم بن عمرو بن عامر بن لؤي، جمع أربعة معه، وذهبوا عند الحجون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وذهبوا عند الكعبة، وأعلنوا رفضهم للصحيفة الجائرة الظالمة، وكان النبي ﷺ قد أخبر عمه أبا طالب بأن الله ﷻ أخبره أن القرضة أكلت الصحيفة، إلا ما كان من اسم الله، فقام المطعم بن عدى ليشق الصحيفة، فوجد ما أخبر به النبي ﷺ صوابا، ثم خرج النبي ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون أية من آيات النبوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ سورة القمر: ٢.

كان هذا الحصار في صدر الإسلام، لمدة ثلاث سنوات، عانى منه بنو هاشم جميعا، وكان من وسائل الضغط عليهم، ليسلموا لهم النبي ﷺ فيقتلوه، وتنتهي دعوته وقصته.

وفي العصر الحديث نجد الدول المعادية للإسلام، عند خلافها مع بعض الدول الإسلامية، تستخدم سلاح المقاطعة والحصار، لمنع ضروريات المعيشة عنها، حتى تستسلم لها، وتنزل على رغبتها، وتحقق لها مصالحها، أو تكسر إرادتها بالحرب العسكرية.

هذا بالإضافة إلى التطور السريع في كل الوسائل التقنية، فتستخدمه الدول في حربها الباردة ضد خصوما، والواقع المعاصر المشاهد خير دليل على ذلك.

❁❁❁

(٤) هجرتا الحبشة الأولى والثانية.

١. الهجرة الأول إلى الحبشة.

٢. الهجرة الثانية إلى الحبشة.

٣. دروس وعبر من هجرتي الصحابة ﷺ إلى الحبشة.

❁❁❁

١-الهجرة الأولى إلى الحبشة:

في أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت الاعتداءات والاضطهادات تنزل بالصحابة ﷺ وتزداد شدة يوما بعد يوم، وازدادت في أواسط السنة الخامسة، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الأثناء نزلت سورة الزمر، تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وأن أرض الله واسعة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الزمر: ١٠.

علم النبي ﷺ أن ملك الحبشة أصحمة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة، فرارا بدينهم من الفتن.

في رجب سنة خمس من النبوة، هاجر أول فوج من الصحابة ﷺ إلى الحبشة، كان مكونا من اثنى عشر رجلًا، وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان ﷺ ومعه

زوجته رقية ﵂ بنت رسول الله ﷺ وقد قال النبي ﷺ فيهما: (إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله، بعد إبراهيم ولوط-عليهما السلام-).

كان رحيل هؤلاء تسللا في ظلمة الليل، حتى لا تفطن لهم قريش، خرجوا إلى البحر، ويمموا ميناء شعيبة، وفيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرت بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار.

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين: في رمضان من نفس السنة، خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وفيه جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم، فقام فيهم وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، ولم يكن بعض سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم تواصوا فيما بينهم بعدم سماعه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ سورة فصلت: ٢٦.

فلما باغتهم بتلاوة السورة، وقرع آذانهم بهذا الكلام الإلهي الخلاب، أخذ مشاعرهم، وأصغو إليه، لا يخطر ببالهم شيء سواه، حتى إذا تلا خواتيم السورة، لم يتمالك أحد نفسه حتى خرّ ساجدا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾ سورة النجم: ٦٢.

لقد سقط في أيديهم أن جلال كلام الله لوى زمامهم، وتوالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، حينئذ كذبوا على

رسول الله ﷺ وافتروا عليه، أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنهم ما كانوا يرددونه هم دائما من قولهم: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى).

جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب، ويطيلون الدس والافتراء.

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تماما عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشا أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما اقتربوا من مكة عرفوا حقيقة الأمر، فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ودخل بعضهم مكة مستخفيا في جوار رجل من قريش، ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسلطت عليهم عشائرهم، فقد كان غضب قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

❁❁❁

٢-الهجرة الثانية إلى الحبشة:

استعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، لكن قريشا تيقظت لها، وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فركبوا السفينة قبل أن تصل إليهم قريش، وكان عدد المسلمين ثلاثة وثمانين رجلا، وتسعة عشرة امرأة.

عز على قريش أن تجد المسلمين لهم مأمنا لأنفسهم ودينهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، هما عمر بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة – قبل أن يسلما – أرسلوا

معهما الهدايا النفيسة للنجاشي وبطارقته، فقدموها لهم، وزودوهم بالحجج التي بسببها يطرد المسلمين، واتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم، بعد ما قدموا له الهدايا، ثم كلماه فقالا له:

(إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم: فقالوا لهما: نعم) ابن هشام ١/ ٣٣٤-٣٣٨.

لكن رأى النجاشي أنه لابدّ من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعا، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنا ما كان، فقال لهم النجاشي؛ ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من هذه الملل؟.

قال جعفر بن أبي طالب، وكان هو المتكلم عن المسلمين: (أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف: فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء

الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبدالله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- قالت: فعدد عليه أمور الإسلام-فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك: ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم: فقال له النجاشي: فاقرأه علي: قالت: فقرأ عليه صدرا من: (كهيعص). قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون) ابن هشام ١/ ٣٣٤.

❁❁❁

٣-دروس وعبر من هجرتي الحبشة:

١-نزلت الاضطهادات بالمسلمين في وقت مبكر، وازدادت يوما بعد يوم، فجعل الله للمسلمين مخرجا من هذا العذاب، فأذن لهم النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة،

حيث إن بها ملكا عادلا لا يظلم عنده أحد، فالهجرة مشروعة لكل مسلم مضطهد في بلده، غير آمن على نفسه ودينه وأسرته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الرحمن: ١٠. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ سورة النساء: ٩٧.

فالأرض كل الأرض، للبشر كل البشر، والإنسان لا يعدم مكانا آمنا في العالم حينما تضيق به بلده، أو من يقومون عليها.

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ∴ ولكن أخلاق الرجال تضييق.

٢-أهمية العدل وقيمته في الإسلام، فالإسلام جاء ليقيم موازين العدل والحرية بين الناس، فحينما وجد العدل وتحقق، انتفع الناس به، لذلك أثنى النبي ﷺ على النجاشي، لعدله، وقاده العدل إلى معرفة الحق، فهداه الله للإسلام فأسلم، وعقد للنبي ﷺ عقد زواجه، على السيدة رملة بت أبي سفيان ﷺ الذي تنصر- زوجها، وصلى النبي ﷺ عليه صلاة الغائب بالمدينة، فكان يحمل أخلاقا أساسية وإنسانية وإسلامية، كشفت له طريق الحق والنور.

٣-تعددت هجرات المسلمين في العصر الحاضر، وتنوعت أهدافها، ما بين هجرة لتحسين موارد الإنسان، أو للتعليم، أو للعلاج، أو السياحة، أو البحث على مكان آمن يأمن فيه على نفسه ودينه، فكل ذلك عمل مشروع، لكن لابد أن تصبحه

نية صادقة، وأن يكون مع ما سبق داعية للإسلام خارج أرضه، بين غير المسلمين، وبجميع الوسائل الدعوية المشروعة.

٤-كان الوفد المهاجر في الهجرة الأولى بقيادة عثمان بن عفان ﷺ ومعه زوجته رقية ﷺ بنت النبي ﷺ فقال عنه الرسول ﷺ: (إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط).

فقد حظى عثمان ﷺ بثواب الهجرتين إلى الحبشة والمدينة، وحجزته قريش فيما بعد في صلح الحديبية، وتزوج بنتين من بنات الرسول ﷺ تباعًا، رقية، وأم كلثوم، وكان خيّرًا جوادًا كريمًا شديد الحياء، أسندت إليه الخلافة بعد الفاروق، فهذا كله يدل على مكانة عثمان ﷺ وفضله ومناقبه، فاستحق أن يسمى ذو النورين، وصاحب الهجرتين، كما أنه نال الشهادة في سبيل الله ﷻ على يد الخوارج وهو يقرأ القرآن الكريم في بيته.

٥-هاجر الوفد سرا وفي ظلمة الليل، وقدر الله ﷻ لهم السفر مباشرة، دون أن تصل إليهم قريش، وهذا يدل على الأخذ بالأسباب المتاحة في الظروف الصعبة، وأن الأمور تمشي بمقادير الله ﷻ وليس بمقادير البشر، وإذا أراد الله ﷻ أمرا هيأ له أسبابه، والنجاح والتوفيق في تدبير الأمور، إنما هو من الله ﷻ وحده، فهو الصانع الحقيقي، والمدبر لكل حدث في الحياة.

٦-سجود المشركين مع المسلمين حينما سمعوا النبي ﷺ يقرأ سورة النجم، وفي آخرها الأمر بالسجود، فهذا دليل على أن القرآن الكريم خاطب عقولهم، وتأثرت

قلوبهم، وخضعت جوارحهم، ولم يتمالكوا أن يقاوموا الاستجابة لهذا النداء العلوي، وعندما رأوا الحقيقة عادوا إلى عنادهم وجدالهم العقيم، فقالوا إن محمدا ﷺ أثنى على آلهتهم خيرا، وهذا كذب وافتراء، لأنه ضد رسالة الإسلام، ولا يوجد ما زعموه في نص سورة النجم.

لكن الحقيقة التي لا يريدون أن يصرحوا بها هي كما حكى القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الأنعام: ٣٣. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة النمل: ١٤.

٧-وجوب التثبت من الأخبار في القضايا المهمة والمصيرية، فحينما وصل خبر إسلام قريش إلى المهاجرين في الحبشة عادوا إلى مكة، وحينما اقتربوا منها وجدوا أن الخبر كاذب، فدخل بعضهم خفية، وأمسكت قريش ببعضهم، ففي مثل هذه الحالة لابدَّ من التأكد من الخبر، بجميع الصور المتاحة، وعدم المغامرة والعودة دون تحقق، لأن الخسائر سوف تكون كبيرة، وقد لا يمكن تعويضها وإصلاحها.

٨-لما علمت قريش بهجرة المسلمين الثانية، حاولت منعهم لكن قد فات الأوان، وهذا يدل على يقظة جهاز الاستخبارات عند قريش، وتحركاته السريعة، وأن الحرب مستمرة، وأن الصراع قضية مصيرية، فلجأت إلى حيلة أخرى، وهي إرسال رجلين يعرفان بالذكاء والحيلة، وزودتهم بالهدايا، وقدموها للبطارقة قبل الدخول في الموضوع، لينحازوا لهم، وأشاروا على الملك بردهم وتسليمهم.

٩-ظهر عدل الملك وذكاؤه في تفحص الأخبار قبل الحكم فيها، وقد شهد النبي ﷺ له بالعدل، وأنه لا يظلم عنده أحد، وقد سلب منه الحكم من قبل ثم رده الله إليه، فاستدعى الصحابة رضي الله عنهم ليسمع منهم مباشرة، وفي حضور مبعوثين قريش.

وكانت إجابة جعفر واضحة وصادقة وموفقة، كسب بها القضية، وحكم الملك ببقائه هو ومن معه من المسلمين، آمنين مطمئنين، لا يقترب منهم أحد بالإيذاء، أو الاضطهاد، فأصبحت لهم حقوق المواطنة، وهم ضيوف الملك، ولاجئون مؤقتا إلى بلده إلى أن يجعل الله لهم مخرجا.

١٠-ركز جعفر في خطبته القوية، على الحقيقة الواضحة في صراحة وصدق، فوصف حالهم قبل البعثة بما كانوا يعيشون فيه في الجاهلية من منكرات وفواحش، ثم بين مكانة الرسول ﷺ ونسبه وصفاته وأخلاقه، ثم تحدث عن طبيعة الرسالة الجديدة، في كونها تقوم على التوحيد الخالص، وعبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام.

ثم بين رسالته الأخلاقية والاجتماعية، في إصلاح المجتمع وتغييره، والنهوض به، ثم ركز على العبادات والفرائض والأركان، ثم بين حرصهم واستجابتهم وقبولهم لكل ما جاء به، ثم بين أن قومهم خرجوا عليهم ليفتنوهم في دينهم، ويردوهم إلى عبادة الأصنام، ولما وقعوا تحت الظلم والقهر والتضييق، وتعذر على عدد كبير منهم من القيام بدينهم، اضطروا للهجرة، وقدموه على غيره، رغبة في جواره، وأن لا يظلوا عنده.

كان النجاشي رجلًا محنكًا فلا يؤمن بالكلام المرسل، فطلب منه أن يسمع شيئاً من القرآن الكريم؛ ليحكم بنفسه، وأحسن جعفر اختيار الآيات، فقرأ مطلع سورة مريم، وهي موضوع مشترك بين النصرانية والإسلام، ولقد تأثر النجاشي وبطارقته بالقرآن، حتى بكت عيونهم، فشهد شهادة الحق للتاريخ، فقال إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكسب جعفر القضية، وحكم النجاشي بالحق والصواب.

لم يسلم عمرو وصاحبه بالنتيجة والحكم، وحاول الوقيعة بهم، والنيل منهم، فعاد إلى النجاشي في اليوم التالي، وقال: إنهم ليقولون في المسيح قولا عظيما، فصدقهم جعفر في الحديث فقال: (هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته، القاها إلى مريم العذراء البتول).

فشهد لهم النجاشي للمرة الثانية، وقال: (والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود). ثم قال: (أذهبوا فأنتم آمنون، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبَرا من ذهب وآني آذيت رجلا منكم). والدَبَر: الجبل باللغة الحبشية.

ثم قال لحاشيته: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، وما أطاع الناس فيَّ، فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة ﵂: (فخرجا من عنده مقبوحين، مردودا عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار).

ومما سبق يتبين أن الهجرتين للحبشة كانتا بتدبير الله ﷻ وأن الله جعل للمسلمين مخرجًا، وأن اختيار النبي ﷺ كان موفقا ومسددا، وأن النجاشي كان عند حسن الظن، وأن الله ﷻ حفظ المسلمين المهاجرين من إيذاء قريش، يعبدون الله آمنين مطمئنين، حتى لحقوا بالمدينة المنورة، أثناء غزوة خيبر.

❁❁❁

(٥) من عوامل الصبر والثبات.

١- الإيمان بالله.

٢- قيادة تهوى إليها الأفئدة.

٣- الشعور بالمسئولية.

٤- الإيمان بالآخرة.

٥-القرآن الكريم.

٦-البشارات بالنجاح.

❁❁❁

إن من يدرس سيرة النبي ﷺ يتعجب أشد العجب، كيف وصل المسلمون الأول من الصحابة رضي الله عنهم إلى هذا القدر الكبير من الصبر والثبات، على الاضطهادات التي نزلت بهم، والجواب يتمثل في عدة عوامل ساعدت على الثبات وهي:

١- الإيمان بالله ﷻ:

فالإيمان بالله وحده، ومعرفته حق المعرفة، خالط بشاشة قلوبهم، فجعلها راسخة مثل الجبال، كما أن الثقة في الله، واليقين الجازم، أعطاهم القوة التي تجعلهم يثبتون أمام الرياح العاصفة، وهونت عليهم متاعب الدنيا ومصاعبها، والشدائد التي تعرضوا لها من التعذيب، بجميع صوره وأشكاله وألوانه.

فحلاوة الإيمان، وجمال مذاقه، جعل بلالا يتحمل حرَّ الشمس، وهو مطروح فوق رمال مكة، وفوق صدره حجر كبير، وجعلت خبابًا يتحمل إطفاء الحديد المحمي بالنار في ظهره، وجعلت مصعبًا يتحمل الجوع والحبس والملابس الخشنة في رضا واستسلام، وقد زالت الآلام والاضطهاد، وبقى ثمرته في الثواب الأخروي، والنصر والتمكين الدنيوي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ سورة الرعد: ١٧.

لقد أعطى الصحابة ﷺ بإيمانهم صورة مثالية عبر التاريخ، كيف أن الإيمان يفجر الطاقات، ويصنع البطولات، ويحقق المعجزات، فمن أشخاص ضعفاء مقيدين معذبين، لم يستطع جلادوهم أن ينتزعوا منهم كلمة الكفر، أو الردة عن الإسلام، والسبب في ذلك إنما هو إيمانهم بالله الواحد الأحد.

❁❁❁

٢- قيادة تهوى إليها الأفئدة:

فكان النبي ﷺ بالسنبة للصحابة ﷺ هو القائد والمعلم والمربي، والأب والأخ والصديق لجميع الصحابة ﷺ وكانت أخلاقه العظيمة، وكمال نفسه، وشيمته النبيلة، وشمائله الكريمة، تجعله مهوى لأفئدة الصحابة ﷺ تتجاذب إليها القلوب، وتتفانى دونه النفوس، كل هذه الأوصاف النبيلة جعلت الصحابة ﷺ يحبونه أكثر من حبهم لأنفسهم، فكان يعطيهم جرعات مستمرة في الصبر والمصابرة، والثبات والصلابة، والرضا بقضاء الله وقدره، فهي أكبر معين للصحابة ﷺ على تحمل

الصعاب والشدائد والآلام، لقد حل من الصحابة ﷺ محل الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين، فكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس، وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا يرضون أن تندق أعناقهم، ولا يخدش له ظفر، أو يشاك شوكة في جسده.

ومن هذه الصور موقف الصديقﷺ فقد تعرض للضرب والتعذيب وماذا كان رده بعد أن أفاق.

يقول ابن كثير: (لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا، ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يَزَلْ أبو بكر يُلِحُّ حتى ظَهَر (وافق) رسولُ الله ﷺ وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته.

وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فَضُرِبُوا في نواحي المسجد ضرباً شديدا، وَوُطِئَ أبو بكر وضُرِبَ ضرباً شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين وَيُحَرِّفُهُمَا لوجهه، ونزا (وثب) على بطن أبي بكر حتى ما يُعْرَفُ وَجْهُهُ من أنفه). البداية والنهاية ٣/ ٣٠.

❁❁❁

٣- الشعور بالمسئولية:

كان الصحابة ﷺ يستشعرون مسئوليتهم الخاصة نحو البشرية، في إنقاذ الناس مما هم فيه من ضلال وزيغ وانحراف، فتحملوا القيام بواجبهم نحو الناس في

صورة رائعة، لا يمكن الحياد أو الانحراف عنها، فالعوامل والآثار التي تترتب على تركهم المسئولية، أكبر بكثير من تحمل الأذى والاضطهاد.

ولذلك انطلقوا في تبليغ الدعوة في سرعة البرق، فأسلم على يد أبي بكر ﷺ ستة من كبار الصحابة ﷺ منهم أربعة من بين العشرة المبشرين بالجنة، ودخل عمر ﷺ في الإسلام بعد ما رأى ثبات الصحابة على الاضطهاد والتعذيب، وإصرارهم على دينهم.

وانطلق الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ إلى قبيلته دوس، يدعوهم للإسلام، بعد ما فهم دوره ورسالته التي يحملها، وهي هداية الناس إلى دين الله ﷻ وانطلق أبو ذر ﷺ إلى غفار يدعوهم إلى الإسلام، ووفدوا على الرسول ﷺ بالمدينة مسلمين بعد أكثر من عشر سنوات، ومصعب بن عمير ﷺ في خلال عام واحد استطاع أن يدخل الإسلام في جميع بيوت الأنصار، وأسلم على يديه كبار الصحابة ﷺ وعظمائهم من الأنصار.

إن شعور الصحابة ﷺ بمسئولية كل واحد منهم نحو هذا الدين الذي يحمله، جعلته يستعذب الآلام، ويصبر عليها، حتى يبلغ الكتاب أجله، ويرفع الله هذا البلاء، وينطلقوا جميعا في طول البلاد وعرضها ينشرون الإسلام، فتحول الضعف إلى قوة، والتعذيب إلى طاقة، والاضطهاد إلى حركة دائبة محركة، والحصار إلى انطلاقة، فيبدأ التغيير من الشعور بالمسئولية نحو الدين الذي يحمله، والرسالة التي يريد أن ينشرها.

❁❁❁

٤- الإيمان بالآخرة:

كان الصحابة ﷺ لديهم إيمان قوي، ويقين جازم، بأنه لابد من يوم آت يحاسب فيه الإنسان على ما قدم من عمل، خيرا كان أو شر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة المطففين: ٦.

وبعد الحساب يأتي الجزاء، إما إلى نعيم مقيم، وإما إلى عذاب عظيم، فكانوا يُفضون حياتهم بين الخوف والرجاء، بين رجاء رحمته، والخشية من عذابه، فكان إيمانهم باليوم الآخر وما فيه من تبعات، يجعلهم تهون عليهم الصعاب، ويتحملون متاعب الدنيا ومرارتها، ومن مات منهم في مكة تحت التعذيب، ولم ير ثمرة الدعوة، من النجاح والانتصارات، والفتوحات الإسلامية، فقد وقع أجره وجزاؤه على الله، مثل ياسر أبو عمار، وسمية بنت خياط، زوجة ياسر ﷺ.

فكان النبي ﷺ يمر عليهم وهم يعذبون في بطحاء مكة ويقول لهم: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) فالإيمان بالآخرة هو الذي يجعل المظلوم يتحمل ظلم الظالم، ويصبر عليه، فإن لم يأت يوم في الدنيا للقصاص، فسوف يأتي يوم أخروي للحساب والقضاء.

❁❁❁

٥- القرآن الكريم:

كانت آيات القرآن الكريم حينما تتنزل تترك أثرًا كبيرًا في نفوس الصحابة ﷺ وتقيم الحجج والبراهين على صدق رسالة الإسلام، وترشد المسلمين إلى قدر الله

ﷻ فيهم، أن يكونوا طلائع هذا الدين في نشره في العالم، بعدما يقيموا الإسلام في نفوسهم، وقلوبهم، وبيوتهم، وحياتهم كلها، فكانت الآيات تتنزل على قلوبهم في قبول ورضا واستسلام، تحثهم على الصبر والتجلد، وتبين لهم عاقبة ذلك من النصر والتمكين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ سورة البقرة: ١٥٥.

كما جاء في قصص كثير في القرآن الكريم، تبين الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، والتمكين بعد الابتلاء، مثل قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى والخضر، وقصة يوسف، وقصص الأنبياء في سورتي يونس وهود وغيرهما، وفي آخر سورة هود نجد القرآن الكريم يحدد الغرض من سوق هذا القصص في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ سورة هود: ١٢٠.

وفي آخر سورة الأعراف نجد تحديد الهدف من القصص القرآني في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ سورة الأعراف: ١٧٦.

وفي آخر سورة يوسف نجد قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ سورة يوسف: ١١١.

كما كان القرآن الكريم يصور لهم نهايات الظالمين عبر التاريخ في سور كثيرة، مثل الأعراف، ويونس، وهود، وإبراهيم، والحجر، والشعراء، والأحزاب وغافر وفصلت.

❁❁❁

٦- البشارات بالنجاح:

كان الصحابة ﷺ على وعي تام، من أول يوم ظهر فيه الإسلام، وآمنوا به، لابدّ أن يلاقوا الشدة والاضطهاد والمصائب والتعذيب، لكن في مقابل ذلك أن الدعوة سوف تقضي على كل مقومات الجاهلية، ونظامها الغاشم، وبسط نفوذ الإسلام على الأرض، والسيطرة على الموقف السياسي في العالم، لتقود الإنسانية كلها، وترشدها إلى منهج الله ﷻ.

وهذه المبشرات والرسائل التي كانت تأتي عبر القرآن الكريم كناية أو صريحة، كانت تشتمل هذه الآيات على ذكر أحوال الأمم، التي تتطابق تماما مع حالة مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر ما تمخضت عنه تلك الأحوال بهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث الأرض لعباد الله الصالحين، فكذلك الحال لابد أن يفشل أهل مكة في المستقبل، وينجح المسلمون في تحقيق رسالتهم في الحياة، ومن الآيات الصريحة التي تبشر بغلبة المسلمين قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ سورة الصافات: ١٧١ – ١٧٢. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ القمر: ٤٥. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ سورة النحل: ٤١.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ سورة إبراهيم: ١٣.

وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والروم، كان الكفار يحبون غلبة الفرس، لأنهم مشركون، وكان المسلمون يحبون غلبة الروم، لكونهم مؤمنين بالله، وهم أهل كتاب سابق، أساسه منزل من عند الله ﷻ وكانت الفرس يغلبون ويتقدمون، أنزل الله ﷻ بشارة بغلبة الروم في بضع سنين، وأضاف إليها بشارة أخرى، وهي نصر الله للمؤمنين، قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ سورة الروم: ٢ – ٥.

لم يكن النبي ﷺ يبشر الصحابة رضي الله عنهم بالجنة فقط، وإنما كان يبشرهم بالفتوحات الإسلامية، وأنهم سيملكون العرب والعجم، وفي الحديث: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكا في الجنة).

وفي حديث خباب رضي الله عنه حينما شكي للنبي ﷺ قال في نهايته: (وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

وأمام هذه المبشرات وغيرها الكثير، كان الصحابة ﷺ يرون أن الاضطهادات والمصائب التي تنزل بهم ما هي إلا سحابة صيف عن قليل سوف تنقشع.

❁❁❁

(٦) دروس من رحلة الإسراء والمعراج.

١- حالة مكة قبل رحلة الإسراء والمعراج.

٢- وصف لأحداث الرحلة والدروس المستفادة منها.

❁❁❁

١- حالة مكة قبل رحلة الإسراء والمعراج.

١- عرض النبي ﷺ نفسه على ما يزيد على عشرين قبيلة، يدعوهم إلى الإسلام، فما آمن به إلا غلام نصراني واحد، يسمى عداس، من الطائف، وأعرضت جميع القبائل عنه، وأغرت به سفهاءهم، فقذفوه بالحجارة حتى أدميت قدماه، وعاد مطرودا إلى مكة، حيث دخلها في جوار رجل مشرك هو المطعم بن عدى، وحزن النبي ﷺ لهذا الإعراض، ورفض أن يدعو عليهم بالهلاك، بل دعا لهم بالهداية فكان ﷺ رحمة للعالمين. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

٢- سرى الله عن نبيه ﷺ هذا الحزن الذي أصابه من إعراض القبائل عنه، فأرسل له طائفة من الجن، استمعت للقرآن، فآمنت به، وأيدت دعوته ﷺ وحملوا هذه الرسالة إلى قومهم لينذروهم بها، فكانوا أحسن قبولا وإجابة من الإنس.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ ﴾ سورة الجن الآيتان (١-٢).

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة الأحقاف الآيات (٢٩-٣٢).

فكأنها رسالة من الله لنبيه تقول: إذا كان الإنس كذبوك، فإن الجن قد صدقوك، وإذا كان أهل الأرض طردوك، فإن أهل السماء استقبلوك، وإذا كان بعض البشر آذوك، فإن الله ﷻ كرمك باستقبال الملائكة والأنبياء في السماء.

فهل نحن حملنا الرسالة وبلغناها مثل الجن؟ والنبي ﷺ مدحهم فقال: **"إنهم كانوا أحسن منكم جوابا، حينما سمعوا** قوله تعَالَىٰ: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الرحمن الآية (١٦). **قالوا ولا بشيء من آلائك نكذب يا ربنا"** الحديث ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور (١٠١/١٤) إسناده صحيح، عن عبد الله بن عمر ﷺ.

❁❁❁

٢- وصف لأحداث الرحلة الدروس المستفادة منها:

٣- بدأت الرحلة من المسجد الحرام بمكة، لبيان أهمية هذا المسجد في الإسلام، فهو أول بيت وضع للناس، بنته الملائكة، ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل، يطوف حوله البشر بالليل والنهار، فإذا توقف البشر طافت الملائكة، فبيت الله الحرام وهو الكعبة يعلم المسلمين التوحيد الخالص لله ﷻ والوحدة والترابط فيما بينهم، لأنه

يربطهم بالله الواحد الأحد، ويتجهون إليه جميعا من أي مكان في العالم للصلاة، فهو نقطة الدائرة لأي مسلم في العالم.

٤- كانت الرحلة إلى المسجد الأقصى بفلسطين، إشارة إلى انتقال القيادة والريادة من أمة اليهود، الذين عاثوا في الأرض فسادا، فلم يعودوا يصلحون لقيادة البشرية، إلى أمة جديدة، صاحبة رسالة وهداية، هي أمة خاتم النبيين ﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة آل عمران الآية (١١٠).

٥- أرض فلسطين وما حولها أرض مباركة، بركة حسية ومعنوية، فيها بيت المقدس، أولى القبلتين، وثالث المساجد التي تشد الرحال إليها، ومسرى رسول الله ﷺ عاش هناك أغلب الأنبياء، ودفن هناك إبراهيم، ولوط، ويعقوب، ويحيى، وزكريا عليهم السلام.

لقد مدحها الله في القرآن الكريم في خمسة مواضع، وهي أرض إسلامية صرفة، ليست ملكا لحاكم ولا لشعب، وإنما هي ملك للإسلام والمسلمين في كل مكان، وهذا يبين واجبنا نحوها، ونحو أهلها، والمقدسات التي على أرضها.

وفي الحديث قال ﷺ: **"لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك"** الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٤٦٠) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وفي رواية: **"قيل أين هم يا رسول الله؟ قال في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس"**. وكل البلاد الإسلامية التي تحيط بأرض فلسطين، مثل مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، من أكناف بيت المقدس.

٦- شرب النبي ﷺ اللبن بدلا من الماء والخمر، إشارة إلى أن النبي ﷺ اختار الفطرة، وهي التي يولد الناس عليها، وقال جبريل عليه السلام (هديت إلى الفطرة) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الروم الآية (٣٠).

ونتعلم أن سريرة المسلم، يجب أن تكون بيضاء نقية مثل اللبن، فلا يضمر شرا، ولا يعرف حقدا، ولا يظهر خلاف ما يبطن، وإنما باطنه أفضل من ظاهره.

٧- إمامة النبي ﷺ للأنبياء والمرسلين السابقين في بيت المقدس، إشارة إلى مكانة النبي ﷺ عند ربه، حيث جعله إماما لجميع الأنبياء والمرسلين، وإشارة إلى وحدة الرسالات السابقة في المصدر والهدف والغاية، فمصدرها جميعا من الله، وهدفها تعبيد الناس إلى الله، وغايتها مرضاة الله ﷻ فالأنبياء جميعا أخوة فيما بينهم، كل واحد يؤدى دوره، ويأتي من بعده ليكمل الرسالة.

وفي الحديث قال ﷺ: **"مثلى ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا موضع لبنة، فكان الناس يقولون: لولا هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة"** الحديث الإمام البخاري (٣٦٤١) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

٨- المشاهد التي رآها النبي ﷺ في رحلة المعراج، إشارات إلى تحذير الأمة من هذه الانحرافات، حيث كانت العقوبات الشديدة المنفرة، فيحذر النبي ﷺ الأمة من

هذه الآفات، مثل الربا، والزنا، والتبرج، وخطباء الفتنة، وأكل مال اليتيم، لأنها أمراض اجتماعية تدمر الأفراد والمجتمع.

فالربا: يجعل الغنى يمص دم الفقير، ويزداد بمال الفقير غنى، ويزداد الفقير فقرا وضعفا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ سورة البقرة الآية (٢٧٥).

والزنا يخلط الأنساب، ويفتح أبواب الشر والفساد، وينشر الأمراض والأوبئة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة الإسراء الآية (٣٢).

وأكل مال اليتيم جريمة ظالمة، تجعل من الحارس لصا، ومن الراعي ذئبا، فمن أجل ذلك صوره القرآن بأنه يأكل نارا في بطنه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ سورة النساء الآية (١٠).

٩- فرضت الصلاة في السماء، في رحلة المعراج، إشارة إلى أهمية الصلاة في الإسلام، حيث إنها أحد الأركان الخمسة، قال ﷺ فيها: **"العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"** الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٢٦٢١) وقال صحيح غريب حسن. عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه.

فالصلاة معراج للأرواح والنفوس، خمس مرات كل يوم في الأداء، وخمسون في الأجر والثواب عند الله ﷻ وإشارة إلى أن المسلم يسمو بنفسه وروحه فوق الشهوات والشبهات، ودائما يتطلع إلى المعالي، ويتعلق بالمثل الأعلى في كل شيء من قيم الحياة، فلا يرضي بالدون أو المؤخرة.

١٠- أيضا أهمية العبودية في الإسلام، فهي أعلى درجات العبادة،، حيث مدحها الله في كتابه، ووصف بها نبيه في مطلع سورة الإسراء، فهي أعلى مقاما، وأسمى مرتبة من غيرها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ سورة الإسراء الآية (١).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ سورة الإسراء الآية (٥).

وفي آخر سورة النحل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ سورة النحل الآية (١٢٨).

فبالتقوى والإحسان يصل الإنسان إلى مرتبة العبودية، التي هي من أعظم الصفات، وهي نهاية الخضوع، وقمة الشعور بعظمة الخالق ﷻ.

فالعبودية الصادقة لله وحدة، هي الطريق للتمكين لهذا الدين في الأرض، وهي الطريق لتحرير المقدسات، وتحقيق الأمنيات، ونيل الدرجات العلى في الدنيا والآخرة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

سورة النور الآية (٥٥).

نسأل الله ﷻ أن يرد المسجد الأقصى إلى حظيرة الإسلام والمسلمين،

وأن يجعلنا من المتخلقين بالتقوى، والعبودية الصادقة لله ﷻ.

❁❁❁

(٧) بيعتا العقبة الأولى والثانية دروس وعبر.

١. بيعة العقبة الأولى.

٢. بيعة العقبة الثانية.

٣. دروس مستفادة من البيعتين.

❁❁❁

١-بيعة العقبة الأولى:

في السنة الحادية عشرة من النبوة، أسلم ستة من أهل يثرب في موسم الحج، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته إلى قومهم، وفي السنة الثانية عشرة في الموسم التالي، جاء اثنا عشر رجلا، فيهم خمسة من الستة السابقين، والسبعة الباقية اثنان من الأوس، وخمسة من الخزرج، التقى بهم رسول الله ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه بيعة النساء.

وفي البخاري (أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: وحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِن أصْحَابِهِ: تَعَالَوْا بَايِعُونِي علَى أنْ لا تُشْرِكُوا باللهِ شيئًا، ولَا تَسْرِقُوا، ولَا تَزْنُوا، ولَا تَقْتُلُوا أوْلَادَكُمْ، ولَا تَأْتُوا ببُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بيْنَ أيْدِيكُمْ وأَرْجُلِكُمْ، ولَا تَعْصُونِي في مَعروفٍ، فمَن وفَى مِنكُم فأجْرُهُ علَى اللهِ، ومَن أصَابَ مِن ذلكَ شيئًا فَعُوقِبَ به في الدُّنْيَا فَهو له كَفَّارَةٌ، ومَن أصَابَ مِن ذلكَ شيئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فأمْرُهُ إلى اللهِ، إنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وإنْ شَاءَ عَفَا عنْه قَالَ: فَبَايَعْتُهُ علَى ذلكَ) البخاري (٣٨٩٢) عن عبادة بن الصامت.

ثم أرسل النبي ﷺ معهم أول سفير في الإسلام إلى يثرب، ليعلم المسلمين شرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ويقوم بنشر الإسلام بين من لم يؤمن من أهل المدينة.

نزل مصعب على أسعد بن زرارة، وأخذا ينشران الإسلام بين أهل يثرب بجد وحماس.

ومن أروع القصص في الدعوة، أنه خرج مع أسعد بن زرارة، إلى دار بنى عبد الأشهل، ودار بنى ظفر، فدخلا في حائط لبنى ظفر، وجلسا على بئر يقال لها مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين، وسمع بذلك سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وهما سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل.

قال سعد لأسيد: أذهب إلى هذين الذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وإنه عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفتيك هذا.

فأخذ أسيد حربته، وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب ﷺ هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق الله فيه، قال مصعب إن يجلس أكلمه، وجاء أسيد فوقف عليهما متشتما، وقال ما جاء بكما هنا، تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعبﷺ: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما نكره، فقال أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن الكريم، قال: فو الله لعرفنا في وجهة الإسلام قبل أن يتكلم، في

إشراقه وتهلله، ثم قال ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أرتم أن تدخلوا في الدين؟.

قال له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، ففعل، فقال: إن ورائي رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، فأرسل إليهم سعد بن معاذ، ووقع له نفس الحوار الذي وقع مع أسيد، وأسلما.

فلما عاد سعد ﷺ قال لبني عبد الأشهل: إن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمس فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة، إلا رجل واحد وهو الأصيرم (عمرو بن ثابت بن وقش الخزرجي). تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم في ذلك اليوم، وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبيﷺ: (عمل قليلا وأجرا كثيرا).

ولم يبق دار من الأنصار إلا دخلها الإسلام، ما عدا دارين، كان فيهما الشاعر قيس بن الأسلت، فتأخروا حتى عام الخندق.

وعاد مصعب ﷺ إلى مكة قبل موسم الحج التالي يحمل بشائر الفوز، ويقص على النبي ﷺ خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعه.

❁❁❁

٢-بيعة العقبة الثانية:

في السنة الثالثة عشرة من النبوة، حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب، وجاء من حجاج قومهم مشركون، وتساءل المسلمون، إلى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟.

فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية، أدت إلى اتفاق بين الفريقين، أن يجتمعوا في أواسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

يقول كعب بن مالك الأنصاري: (خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا- وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا-فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبا) ابن هشام ١/ ٤٤٠-٤٤٢.

وبنود البيعة: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة "، فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة

وهو أصغر السبعين إلا أنه قال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضكم السيف فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل، فقالوا: يا أسعد أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها قال: فقمنا إليه رجلا رجلا فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة).

مسند أحمد ٣/ ٣٢٢، والبيهقي ٩/ ٥٩ وصححه الحاكم وابن حبان.

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، قام رجلان من الرعيل الأول، ممن أسلموا في السنة الحادية عشرة، قام أحدهما تلو الآخر، ليؤكد للقوم خطورة المسؤولية، حتى يبايعوه على جلية من الأمر، ومدى استعدادهم للتضحية.

قال ابن إسحاق: (لما اجتمعوا للبيعة، قال العباس بن عبادة بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم).

وبعد إقرار بنود البيعة وتأكيدها، بدأت البيعة بالمصافحة، قالوا لأسعد بن زرارة أحط عنا يدك، فو الله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها.

وهنا تأكد مدى استعداد القوم للتضحية، وكان أول المبايعين أسعد بن زرارة، ثم بدأت البيعة العامة، فقمنا إليه رجلا رجلا، فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلك الجنة، وأما بيعة المرأتان فكانت قولا، فما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط.

وبعد أن تمت البيعة، طلب الرسول ﷺ منهم أن يختاروا اثنى عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم:

أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فأما التسعة فهم: أسعد بن زرارة، سعد بن الربيع، عبد الله بن رواحة، رافع بن مالك، البراء بن معرور، عبد الله بن عمرو بن حرام، عُبادة بن الصامت، سعد بن عبادة، المنذر بن عمر.

وأما نقباء الأوس الثلاثة منهم: أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة، رفاعة بن عبد المنذر، وبعد أن تم اختيار هؤلاء النقباء، أخذ النبي ﷺ عليهم ميثاقا آخر بصفتهم رؤساء على قومهم، قال لهم: (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي).

ولما تم إبرام المعاهدة، اكتشفها أحد الشياطين في اللحظات الأخيرة، لم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش بهذا الخبر ليباغتوا المجتمعين في الشعب، فقام هذا الشيطان على مكان مرتفع من الأرض، وصاح بصوت عال، يا أهل الجباجب – أي المنازل – هل لكم في مذمم والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم، فقال الرسول ﷺ: (هذا أزب العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك) ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم.

ولما سمع الأنصار هذا الصوت، قال العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا. فقال رسول الله ﷺ: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم). فرجعوا وناموا حتى أصبحوا.

ولما علمت قريش بالخبر، ساورتهم القلاقل والأحزان، لأنهم كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة، ونتائجها بالنسبة لهم، ففي الصباح تقدم بعض زعماء مكة إلى أهل يثرب، ليقدم احتجاجه على هذه المعاهدة.

قال الوفد: (يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم).

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئا عن هذه البيعة، لأنها تمت في سرية تامة، وفي ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله، ما كان من شيء وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبي بن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليّ بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني.

وأما المسلمون فلاذوا بالصمت، ولم يتحدث أحد بنفي أو إثبات، ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

عاد زعماء مكة وهم على شبه يقين من كذب الخبر، لكنهم كانوا يدققون ويبحثون في الخبر حتى تأكد لهم صحته، وأن البيعة قد تمت فعلا، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربين، لكن بعد فوات الأوان، وتمكنوا من رؤية سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو فطاردوهما.

فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فقبضوا عليه، وجعلوا يضربونه، ويجرونه من شعره، حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية، فخلصاه من أيديهم، إذ كان سعد يجير لهما قوافلها المارة بالمدينة، وتشاور الأنصار حينما فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فواصل القوم سفرهم إلى المدينة.

لقد تمت هذه البيعة، في جو من المشاعر والعواطف في الحب والولاء، والتناصر بين المسلمين، والثقة والشجاعة والاستبسال، في هذا السبيل، وكان مصدر هذه العواطف الجياشة هو الإيمان بالله وبرسوله، إيمان قوي راسخ، لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان، فإذا هبت ريح الإيمان أتت بالعجائب، من الشجاعة النادرة، والتضحيات الغالية.

❁❁❁

٣-دروس وعبر من بيعتي العقبة الأولى والثانية:

١-حينما أغلقت قريش ومكة أبواب الحرية أمام تبليغ الدعوة الإسلامية، فتح الله لها بابا آخر لتبليغ الدعوة، وحمل الرسالة، والدفاع عنها، من خلال الستة الأول الذين قابلهم النبي ﷺ في موسم الحج، ثم صاروا اثنا عشر رجلا في العام الحادي عشر، فكانوا طلائع المسلمين في المدينة، وقد بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى، فبايعوه على آية سورة الممتحنة، وهي ما تعرف ببيعة النساء.

٢-أرسل النبي ﷺ مصعبا داعية للإسلام بين أهل المدينة، فكان نعم الداعية، حيث طاف عليهم في بيوتهم ومنازلهم وأحيائهم، يبلغهم رسالة الإسلام، ويقرأ

عليهم القرآن الكريم، وكان يستخدم أسلوب الحوار والاقناع معهم، فأسلم على يديه كبار القوم مثل، أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، ومن ورائهم دخلت بيوتهم في الإسلام، وما غادر مصعب المدينة حتى دخل الإسلام في جميع بيوتها، باستثناء بيتين فقط.

فمصعب ﷺكان داعيةً صادقًا مع نفسه، يظهر في كلامه صدق اللهجة، وصدق الله فيهم، فهداهم الله للإسلام، فكل من أسلم من الأوس والخزرج أو الأنصار وما جاء من نسلهم مسلم إلى قيام الساعة، كل ذلك في ميزان حسناته عند الله ﷻ يوم القيامة.

كما أنه رجع إلى مكة بعد عام يبشر النبي ﷺ بأخبار أهل المدينة، ومدى استعدادهم للدفاع عن الإسلام، وحماية الرسول ﷺ فهيء الأرض لاستقبال المهاجرين، من خلال ما بذله مع الأنصار من جهد، وما قدمه من دعوة صادقة.

٣-أسفرت السنة التي قضاها مصعب ﷺ بالمدينة عن قدوم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، في موسم الحج في العام الثالث عشر، لمبايعة النبي ﷺ على حمايته ونصرته، والدفاع عنه، فكان يعرف رسالته جيدا، ويقوم بأدائها على أحسن حال، فكان نعم الداعية، الذي ينبغي أن يتعلم الدعاة والمسلمون منه، كيف تكون التضحية في سبيل الدين والرسالة؟.

٤-تمت بيعة العقبة الثانية في سرية تامة رغم كثرة العدد، وفي موسم الحج، واختلاطهم بالمشركين من قومهم، وانتهت بنجاح، ولم يعلم بها أحد من البشر

سوى شيطان من الجن، الذي علم بالخبر وقام بنشره بعد انتهاء المبايعة، وتم التغلب على الخبر وآثاره في صورة سريعة جدا.

٥-توسم الأنصار الخير في عبد الله بن عمرو بن حرام، فدعوه إلى الإسلام قبل بيعة العقبة مباشرة فأسلم، وكان من نقباء الخزرج، وكان من شهداء أحد، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ لابنه جابر: (إن الله لم يكلم أحدا مشافهة غير أبيك).

فكان معدنه حسنًا، وسريعا في قبول الإسلام، ومسؤولًا عما وراءه من الأوس، وختم الله ﷻ له حياته بالشهادة في سبيل الله.

٦-تأكيد العباس على خطورة المسؤولية التي ستلقى على الأنصار، فيكاشفهم بالحقيقة واضحة جلية، لأن الأمر في غاية الخطورة، وحسن ردهم عليه يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم، حيث قالوا: تكلم يا رسول الله ﷺ: (فخذ لنفسك ولربك ما أحببت).

٧-كانت بنود البيعة واضحة ومحددة ودقيقة جدا، رغم إيجازها فقد ركزت على هذه البنود: (السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهر بكلمة الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، ونصرة النبي ﷺ ومنعه ما يمنع الانسان منه نفسه، وزوجه، وولده، وأمام ذلك له الجنة).

وكانت بينهم وبين اليهود صلات هم قاطعوها، فكانت إجابة النبي ﷺ واضحة فقال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم).

ولما راجعهم شخصان من الرعيل الأول مرة أخرى، فأكدوا موقفهم فقالوا: نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فتمت البيعة على ذلك.

٨-كان طلب النبي ﷺ في اختيار النقباء، ليقوم كل واحد منهم على من وراءه في تنفيذ بنود البيعة، وكان النقباء جميعًا من خيرة الأنصار، وحملهم النبي ﷺ المسؤولية، فجعلهم كفلاء على قومهم، وهو كفيل على قومه، فأصبحت هناك مسؤولية فردية من كل فرد عن نفسه، ومسؤولية جماعية من كل نقيب على من وراءه من قومه.

٩-اكتشاف الشيطان لهذه البيعة في نهايتها، ومناداته على أهل مكة، ليخبرهم بالواقعة، سواء كان شيطانا من الجن أو الإنس، فإن الدعوة لا تخلوا من خصوم لها على مر التاريخ، وهي سنة تاريخية في الصراع بين الحق والباطل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ سورة الأنعام: ١٢٣.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ سورة الأنعام: ١١٢.

١٠-حرص الأنصار على الكتمان والسرية، حينما علم سادة قريش بالبيعة، فأنكر مشركو المدينة، وسكت المسلمون، فلم يثبتوا أو ينكروا، وكان هذا التصرف من الحكمة والذكاء، فلم يكذبوا، ولم يؤكدوا الخبر، وتركوا مشركي يثرب هم الذين ينفون.

١١-احترام حق الإجارة بين مشركي العرب، فقد أجار المطعم بن عدى، والحارث بن حرب بن أمية، سعد بن عبادة، لأنه كان يجير لهم قوافلهم المارة بالمدينة، فخلصوه من أيدي المشركين، وهذا العمل أنقذ الفريقين من صدام دموي مبكر، يخسر فيه كل الأطراف.

١٢-تعد بيعة العقبة الثانية من أخطر الأمور التي تمت في المرحلة المكية، وتعد انتصارا للدعوة، حيث وجد المسلمون الأرض التي يهاجرون إليها، ويتجمعون فيها، ويقيموا فيها دولة الإسلام، وينطلقوا منها للفتوحات الإسلامية في الجزيرة العربية وما حولها.

كما أن البيعة صنعت أنصارا يؤمنون بهذا الدين الجديد، فيقومون بواجبهم نحوه، وفتحوا قلوبهم وبيوتهم للمهاجرين، حتى إن القرآن الكريم أثنى عليهم ثناء عاطرا، خلده الله في آيات تتلى في الصلاة، ويتعبد المسلمون بقراءتها، وهي كلها مدح وثناء للأنصار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ سورة الحشر: ٨.

كما أن النبي ﷺ دعا لهم ولأولادهم بالرحمة، فهم أهل كرم وإيثار، وأهل فضل وإيمان، وأهل سبق ونصرة، قال ﷺ: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار). فكسبوا بذلك عز الدنيا، وسعادة الأخرة.

❁❁❁

(٨) دروس من الهجرة النبوية الشريفة.

مقدمة.

١- النية الصالحة.

٢- التخطيط الجيد.

٣- التضحية الغالية.

٤-المعية الإلهية.

❁❁❁

مقدمة:

لماذا نتحدث عن الهجرة النبوية الشريفة الآن، وفي هذه الأيام بالذات؟ والإجابة: لمناسبة الأيام التي نعيشها وهي بدء العام الهجري الجديد، فما أجمل التذكرة حين تكون الذكرى، ولنستخلص منها بعض الدروس والعبر، التي تنفع الأمة في حاضرها ومستقبلها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ سورة إبراهيم الآية (٥). وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ سورة الذاريات الآية (٥٥).

وكذلك لأن الهجرة أعظم حدث في تاريخ الإسلام والمسلمين الأوائل، حيث نقلتهم من الضعف إلى القوة، ومن الاضطهاد إلى الأمن والأمان، ومن الدعوة فقط

إلى الدعوة والدولة، والنصر والتمكين في الأرض، فلولا الهجرة ما خرج الإسلام من مكة، ولا انتشر في الجزيرة العربية، ثم انطلق من المدينة المنورة، إلى أنحاء العالم.

ومن عوامل نجاح الهجرة المباركة أنها قامت على الأسس الآتية:

١ - النية الصالحة:

إن كل عمل لابد أن تسبقه نية، سواء كانت حسنة أو سيئة، لأنها التي يترتب عليها قبول العمل أو رده على صاحبه، حتى ولو كان عظيما، ومن ثم فالنية الصالحة مهمة جدا في بداية الأمور كلها، وفي الحديث قال ﷺ: **"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"** الحديث أخرجه الإمام البخاري (١) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

فالنبي ﷺ وصاحبه كانت هجرتهما من مكة إلى المدينة ابتغاء مرضاة الله، وكذا الصحابة الكرام، حينما استنفرهم النبي ﷺ للهجرة، فكانت نياتهم ابتغاء مرضاة الله، لذلك كان التوفيق من الله حليفهم جميعا، وكانت النية الخالصة سببا في نجاح الهجرة، وتحقيق الثواب والأجر من الله ﷻ.

❁❁❁

٢ - التخطيط الجيد، ومن ذلك ما يأتي:

١ - اتخذ النبي ﷺ الراحلة، التي تنقله من مكة إلى المدينة قبلها بستة أشهر، وقام أبو بكر ﷺ برعايتها حتى يحين وقت الرحيل.

٢- اتخذ النبيﷺ الرفيق في الرحلة، متمثلا في شخص سيدنا أبي بكر ﷺ حتى يكون رفيقه في هذه الرحلة الشاقة الطويلة.

٣- اتخذ النبي ﷺالدليل، فاستأجر عبد الله بن أريقط، فهو خرّيت عارف بالطرق والشعاب، فسلك بهما طريق اليمن من جنوب مكة.

٤- اتخذ النبيﷺ من يأتيه بأخبار مكة، فكان عبد الله بن أبي بكر ﷺ وهو غلام شاب ثقف حاذق، فكان يبيت في مكة ليأتيه بالأخبار في الصباح الباكر.

٥- اتخذ النبي ﷺ من يأتيه بالطعام والشراب، فكانت السيدة أسماء ذات النطاقين ﷺ تتحمل السير في الصحراء والجبال من أجل مساعدة النبي ﷺ ووالدها.

٦- اتخذ النبيﷺ من يمحو آثار الأقدام، فكان عامر بن فهيرة، غلام أبي بكر ﷺ يرعى الغنم بجوار الغار، ليمحو آثار النبي ﷺ وصاحبه وكل من يأتي إليهما.

٧- اتخذ النبي ﷺ الطريق الجانبي غير المألوف، طريق اليمن، حتى لا يستطيع أن يصل إليه المشركون إلا بعد عناء ومشقة.

٨- المكث في الغار ثلاثة أيام، حتى يهدأ الطلب، وتيأس قريش من العثور عليهما، فتسكت عنهم.

وما أحوج المسلمين الآن إلى التخطيط الجيد، الذي يستفيد من كل الطاقات، وفئات المجتمع، ويوظفها من أجل نصرة الإسلام والتمكين له.

❁❁❁

٣-التضحية الغالية:

إن كل عمل ناجح يحتاج إلى تضحيات عظيمة، والعمل العظيم الذي قام به النبيﷺ هو بناء دولة، وقيام أمة، وبعثة رسالة جديدة، لذلك ضحى الصحابة بأمور كثيرة، من أجل إنجاح الهجرة، منها ما يأتي:

١-التضحية بالبلد، فكل من هاجر من مكة إلى المدينة، إنما ترك بلده الذي ولد فيه، لأنه خرج قهرا وفرار بدينه، والنبي ﷺ قال وهو خارج من مكة: **"والله إنك لأحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إلى، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت"** الحديث أخرجه الإمام الدارقطني (١٠٤) حسن صحيح ثابت، ولم يأت من وجه صحيح شيء يعارضه، عن عبد الله بن عدى بن الحمراء ﷺ.

٢- هناك من الصحابة من ضحى بالزوجة والولد والعاطفة، مثل أبي سلمة مع زوجته، في قصته المشهورة.

٣- هناك من الصحابة من ضحى بماله كله، مثل صهيب بن سنان، في قصته المشهورة أيضا.

٤- هناك من الصحابة من ضحى بنفسه، وعرضها للهلاك، فداءً للنبي ﷺ مثل على بن أبي طالبﷺ الذي نام على فراش النبي ﷺ.

والدرس الذي نتعلمه هنا، أن نجاح الدعوة يحتاج إلى تضحية بالغالي والنفيس.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ سورة التوبة الآية (١١١).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة التوبة الآية (٢٤).

❁❁❁

٤- المعية الإلهية:

حينما تنتهي الأسباب البشرية التي أخذت بها، وتستفرغ الجهد والوسع، تأتى المعية الإلهية، والتوفيق الرباني، لينقذ الإنسان من الهلاك، وأوضح مثال على ذلك، كان في موقف النبيﷺ وصاحبه في الغار، حينما وصل إليه المشركون، وأبو بكر ﷺ يقول: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا؟.

فيقول النبي ﷺ: **"يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا"**

الحديث أخرجه الإمام البخاري (٤٦٦٣) عن أبي بكر ﷺ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ سورة التوبة الآية (٤٠).

وتتجلى المعية أيضا في قصة سراقة بن مالك، حينما لحق بهما، فساخت أقدام فرسه في الرمال، ليعلم أنه أمام نبي مؤيد بالوحي والرسالة، كذلك تجلت المعية الربانية، حينما أجرى الله اللبن في ضرع شاة أم معبد العجفاء، فشرب النبي ﷺ ومن معه من هذا اللبن، حتى شبع الجميع.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ سورة الطور الآية (٤٨).

وإذا العناية لاحظت عيونها ∴ نم فالمخاوف كلهن أمان.

نسأل الله ﷻ أن يحفظنا بعنايته ورعايته، وحفظه وتوفيقه.

❁❁❁

(٩) غزوة بدر دروس وعبر.

١. سبب الغزوة.

٢. مسيرة الغزوة.

٣. أحداث الغزوة.

٤. من صور الإيمان.

٥. دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

١- سبب الغزوة:

كانت عيرٌ لقريش ذهبت للشام للتجارة، وفي عودتها رصدها النبي ﷺ ليصيب أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة، تعويضا عما فقده المسلمون من أموال في مكة، فقد تركوا الأموال والديار والتجارة، فقال النبي ﷺ:

(هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها).

فانتدب النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم للخروج للعير، ففلتت منهم بدهاء أبي سفيان، واصطدم المسلمون في النهاية مع جيش مكة عند ماء بدر، بعيدا عن المدينة ما يقرب من ١٧٠ ك متر.

❁❁❁

٢- مسيرة الغزوة:

قسم النبي ﷺ جيشه إلى كتيبتين، الأولى للمهاجرين، وأعطى رايتها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والثانية للأنصار، وأعطى رايتها سعد بن معاذ رضي الله عنه.

سار النبي ﷺ بالجيش في طرق رئيسية وجانبية يتحسس الأخبار، حتى وصل إلى ماء بدر، وتحسس أبو سفيان الأخبار، فعلم برصد النبّي ﷺ للعير، فأرسل إلى مكة يطلب الغوث والمدد، فتجهزت قريش سريعا وخرج جيشها في ألف وثلاثمائة رجل، إما بنفسه أو من ينوب عنه، وتحركوا حتى وصلوا بالقرب من ماء بدر، بينما نجا أبو سفيان بعير القافلة، بعد ما غير طريقها من الرئيسي إلى الجانبي.

همَّ جيش مكة بالرجوع بعد ما نجت العير، ولكن أصرَّ أبو جهل بعدم الرجوع حتى يردوا ماء بدر، ويقيموا ثلاث، فُتنحر الجزر، ويطعموا الطعام، ويسقى الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بهم العرب، فلا يزالون يهابونهم.

رجع الأخنس بن شريق ومن معه من بني زهرة، وكانوا ثلاثمائة رجل، وسلموا من القتل والأسر بسبب رجوعهم، وحاول بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل.

كان الجيش الإسلامي في حيرة بعد تفلت عير قريش، ومجيء جيشها، وعسكرته بالقرب من ماء بدر، ونشر سمعته وقوته بالمكان، وربما يباغت المدينة، فكان المجلس الاستشاري الذي وافقوا رأى الرسول ﷺ بحتمية الحرب والقتال **قَالَ**

تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ ﴾ سورة الأنفال: ٥. ووافق المهاجرون والأنصار على قرار الحرب الحاسم.

قام الرسول ﷺ بعمليات استكشافية لمعرفة موقع جيش مكة، وعدد أفراده، فقابل النبي ﷺ رجلا من العرب فسأله، وأرسل ثلاثة من قادة الجيش ليأتوه بأخبار جيش مكة، فقبضوا على غلامين يسقيان لقريش، وحصلوا منهما على تفاصيل الجيش.

نزل المطر من السماء، فكان وابلًا على قريش، وطلًا على المسلمين، أذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلَّب به الرمال، وربط على قلوبهم.

سبق النبي ﷺ إلى أرض المعركة، أولًا فاختار الموقع الأفضل، حيث سبق إلى ماء بدر، وحال بينه وبين المشركين، وذلك بعدما أشار عليه الحباب بن المنذر بذلك.

اقترح سعد بن معاذ ﷺ على النبيّ ﷺ أن يبنوا له عريشا يُديرُ منه المعركة، فيكون مقرا للقيادة، استعدادا لطوارئ الأحداث، إذا لم يكتب الله للمسلمين النصر، فأثنى الرسول ﷺ عليه، ودعا له بخير، وقاد سعد فرقة الحراسة حول العريش.

❁❁❁

٣- تعبئة الجيش، وقضاء الليل، وأحداث الغزوة:

تفقد النبي ﷺ موضع المعركة بعدما عبأ الجيش، وأخذ يشير بيده إلى مصارع القوم، وبات يصلى إلى جذع شجرة هنالك، وبات الصحابة ﷺ هادئ الأنفاس يستبشرون بالنصر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الأنفال: ١١.

أوشك أن يقع خلل في جيش مكة وانشقاق، لكن أبا جهل استطاع أن يسيطر على الأحداث بوسائل كثيرة استغلها؛ لعدم الرجوع وحتمية المعركة.

حينما تراءى الجمعان، قال الرسول ﷺ: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بُخيلائها وفخرها، تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة). واستفتح أبو جهل فقال: (اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك، وأرضى عندك، فانصره اليوم).

وفي ذلك نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الأنفال: ١٩.

بدأت المعركة بمصرع الأسود بن عبد الأسد المخزومي، قتله حمزة بن عبد المطلب ﷺ ومنعه من الشرب من ماء بدر، ثم تبارز ثلاثة من فرسان قريش، مع ثلاثة من الصحابة ﷺ حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، واتحسمت المبارزة لصالح المسلمين، ونزلت فيهم الآية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الحج: ١٩. ثم كان الهجوم العام من الجيشين.

استمر النبي ﷺ في مناشدته ربه ما وعد من النصر، وهو يقول: (اللهم أنجز لي وما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد).

بالغ النبي ﷺ في الدعاء حتى سقطت عباءته عن منكبيه، والصدّيق يقول له: (حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك). ونزلت الملائكة في صفوف المسلمين تثبتهم في الميدان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ سورة الأنفال: ١٢.

وبشر النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بنزول جبريل، يأخذ بعنان فرسه، ونزول قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ سورة القمر: ٤٥.

وأخذ قبضة من الحصاة وألقاها على قريش، وهو يقول شاهت الوجوه، ونزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ سورة الأنفال: ١٧.

وجاء الهجوم المضاد من المسلمين بأمر النبي ﷺ وهو يحرضهم على القتال ويقول: (والذي نفسي بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة).

وقال لهم: (قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، قالَ: يقولُ عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يا رَسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ:

بَخٍ بَخٍ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: ما يَحْمِلُكَ علَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟. قالَ: لا وَاللهِ يا رَسولَ الله، إلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِن أَهْلِهَا، قالَ: فإنَّكَ مِن أَهْلِهَا، فأخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِن قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ منهنَّ، ثُمَّ قالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتَّى آكُلَ تَمَرَاتي هذِه إنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قالَ: فَرَمَى بما كانَ معهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتَّى قُتِلَ).

وقال عوف بن الحارث: يا رسول الله، ما يُضحِك الرب من عبده؟ "أي: ما يرضيه من عبده غاية الرضى" قال: (غمسه يده في العدو حاسرًا) فنزع عوف درعًا عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

ورأى الصحابة ﷺ الرسول ﷺ يثبت في الدرع، وتقدمهم في قتال المشركين وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ سورة القمر: ٤٥.

كانت رؤوس وأيدي المشركين تضرب وتقطع، والصحابة ﷺ لا يدرون من يفعل ذلك، وسمع الصحابة ﷺ من يقول: (أقبل حيزوم) ولما سألوا الرسول ﷺ قال: (ذلك من مدد السماء الثالثة).

فكانت الملائكة في المعركة للتثبيت، وانسحب إبليس من الميدان، وفرَّ ونكص على عقبيه، وكانت الهزيمة الساحقة.

حينئذ اضطربت صفوف المشركين، ووقعوا بين القتل والأسر والفرار من الميدان، وصرع أبو جهل ومات شرَّ موته، على يد اثنين من شباب الأنصار.

❁❁❁

٤- من روائع صور الإيمان:

حاول عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن يأسر صديقه في الجاهلية أمية بن خلف، وكان معه عدة دروع فتركها، وأخذ أسيره، فجاء بلال بن رباح ﷺ وكان مولى عنده، ويعذبه قبل الهجرة في مكة، فلما رأه فقال رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فقال عبد الرحمن إنه أسيري، فصاح بلال: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، فأحاط به عدد من الأنصار حتى قتلوه، وهبروه بأسيافهم، فكان عبد الرحمن ﷺ يقول: (يرحم الله بلالا، ذهبت أدرعي، وفجعني بأسيري).

قتل عمر بن الخطاب ﷺ خاله هشام بن المغيرة، ولم يلتفت إلى قرابته، منه.

ولما لقى العباس أسيرًا قال له يا عباس: (أسلم، فو الله إن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك).

انقطع سيف عكاشة بن محصن الأسدي ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلا من حطب، فقال: (قاتل بهذا يا عكاشة). فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه فعاد سيفا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله ﷻ للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده.

أسر المسلمون أبا عزيز، أخي مصعب بن عمير ﷺ فرأه مصعب بعد المعركة في يد أحد الأنصار، يشدُّ يده، فقال مصعب: (شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها

تفديه منك) فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: (أهذا وصاتك بي) فقال مصعب: إنه (أي-الأنصاري-أخي دونك).

نادى أبو بكر الصديق ﷺ ابنه عبد الرحمن، وهو يومئذ مع المشركين، فعاتبه على أخذ ماله، وفي رواية أن ابنه كان يقول: (لقد رأيتك يوم بدر وتلاشيتك) فقال أبوه: (ولو رأيتك لقتلتك).

هذه بعض الصور والنماذج والبطولات، والمواقف الإيمانية، التي تكشف عن حجم الإيمان في قلوب الصحابة ﷺ وتجردُهم للحق، والولاء للدين والعقيدة، والبراء من الكفر والشرك، وقد ضربوا أروع الأمثلة في ذلك، من خلال تلك الصور السابقة، التي قلما ترى مثلها في التاريخ.

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للمشركين، ونصر مبين للمسلمين، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون.

ووقف النبي ﷺ على قتلى المشركين مخاطبا إياهم، قائلا: (بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس).

وألقى بهم في القليب وهو ينادى عليهم: (يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا). تلقفت مكة خبر الهزيمة الساحقة للمشركين، ووصلت الوفود من المسلمين

الذين لم يحضروا الغزوة لتهنئة الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم بالنصر، ثم كانت قضية الأسارى، وحديث القرآن الكريم عن المعركة.

❁❁❁

٥- الدروس المستفادة من الغزوة:

١-أن الأمور تمشى بمقادير الله ﷻ وليس حسبما يريد البشر- دائما، فخرج الصحابة رضي الله عنهم للعير، وأفلت بها أبو سفيان، وخرج جيش مكة لإنقاذ القافلة، ووصلت إلى مكة سالمة، وفرضت الحرب نفسها على الطرفين، وكان هذا تدبير الله ﷻ قبل كل شيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ ﴾ سورة الأنفال: ٥.

فعلى المسلم أن يأخذ بجميع الأسباب، وأن يصنع هو الحدث، بأن يكون قدر الله ﷻ الغالب، وقدره الذي لا يرد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩ ﴾ سورة القمر: ٤٩.

٢-سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لنداء النبي ﷺ بالخروج، وتجهيز أنفسهم بالمتاح، وحرصهم على متابعة خطى الرسول ﷺ خاصة حينما فرضت الحرب نفسها، فكانوا أوفياء صادقين مع أنفسهم، وقاتلوا قتال الرجال، فكانوا صدقا في الحرب، صبرا عند اللقاء، لأنهم علموا أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، ودرب العزة للأمة، وأنه الطريق لكسر حدة المشركين وشوكتهم.

٣-أهمية الشورى في حياة الأمة المسلمة، فقد شاور النبي ﷺ الصحابة ﷺ في الحرب والقتال، واجمعوا رأيهم على خوض المعركة معه، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، واقترح الحباب بن المنذر مكان المعركة الاستراتيجي، بأن يجعلوا الماء ورائهم، حتى يشربوا ولا يشرب الأعداء، ووافق النبي ﷺ على رأيه واستحسنه، لأنه يحقق المصلحة العامة للمسلمين.

٤-أهمية رصد العيون، وجمع الأخبار، ومعرفة تحركات الخصم أولا بأول، ووضع الخطة المناسبة لواقع المعركة، وتعبئة الجيش إيمانيا وعسكريا قبل النزال، وحتمية اللجوء إلى الله ﷻ بالدعاء، وطلب استنزال النصر من الله، والأخذ بأسبابه المادية والمعنوية في امتلاك القوة، وتوظيفها في موضعها عند الحاجة.

٥-تأييد الله لنبيه ﷺ بنزول الملائكة، وتثبيتهم للمجاهدين في المعركة، فالنبي ﷺ نصر بالرعب، ونصر بجند من عند الله ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ سورة المدثر: ٣١.

فتجلت عدة معجزات في هذه الغزوة، التي هي أول لقاء بين الكفر والإيمان، ومنها نزول الملائكة على ما يعرف بجبل الملائكة، وآيات القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وأحداث الغزوة تشهد بذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ سورة الأنفال: ١٢.

٦-نصرة الله ﷻ للمظلومين ولو بعد أمد طويل، وانتقام الله للمستضعفين، فقد قتل العبيد الأرقاء المستضعفين المعذبين، أسيادهم وقادات قريش الذين قاموا بتعذيبهم والنكال بهم، فأراهم الله انتقامه في الدنيا قبل الأخرة، وعلى أيدهم، فقتل بلال بن رباح سيده، أمية بن خلف، وأنهى عبد الله بن مسعود حياة أبي جهل، عمرو بن هشام، وقطع رأسه في اللحظات الأخيرة قبل هلاكه، وأمر النبي ﷺ بضرب رقبة اثنين من عتاة الكفر الذين وقعوا في الأسر، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وينالون منه في مكة، هما النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط.

٧-التحذير من الدنيا ومتاعها، والتعلق بما فيها، من الغنائم الزائلة، فبعد انتهاء الغزوة اختلف الصحابة ﷺ في توزيع الغنائم، فقال الذين جمعوها نحن أولى بها، وقال الذين تتبعوا الأعداء نحن أولى بها، واختلفوا فيمن أحق بها؟.

فنزلت آيات الأنفال؛ لتعلمهم أن يتركوا التوزيع إلى الله والرسول، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ سورة الأنفال: ١.

وأن ينشغلوا بإصلاح ذات بينهم، وما وقع بينهم من خلاف، وأن يتجردوا في المعارك نصرة للدين، وإعلاء لكلمة الله ﷻ وتعميقا للإيمان في نفوسهم، وترسيخا له في قلوبهم فهذا هو الأساس الذين يجب عليهم أن ينشغلوا به، فسبب الخلاف في بدر هو كان سبب في أحد.

❁❁❁

(١٠) غزوة بني قينقاع دروس وعبر.

مقدمة.

١- سبب الغزوة.

٢- خط سير الغزوة وأحداثها.

٣- دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

مقدمة:

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، عقد عدة معاهدات مع قبائل اليهود داخل المدينة، حتى إذا أخطأت قبيلة لا يؤخذ غيرها بذنبها، كما أن النبي ﷺ كان حريصا على الالتزام ببنود المعاهدات عرفيا، لكن اليهود نكثوا العهد، وأخذو طريق الدس والمؤامرات، وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين.

كما فعل شاس بن قيس اليهودي، من الوقيعة بين الأوس والخزرج، حتى كادت الحرب أن تشتعل بينهما من جديد، في قصة مشهورة في السيرة النبوية المباركة.

ولهم وسائل وأساليب كثيرة، في إثارة القلاقل والفتن بين المسلمين، فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار ويكفرون آخره، ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء.

وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن، إن كان له ارتباط مالي بهم، فإن كان لهم عليه مال يطالبونه صباحا ومساءً، وإن كان له عليهم مال يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه، وحجتهم الباطلة في ذلك يقولون: (إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذا صبوت فليس لك علينا من سبيل).

وبعد أن نصر الله المؤمنين نصراً مؤزرا في ميدان بدر، وأصبحوا في عزة وشوكة، وهيبة ومنعة، تميزت قلوبهم بالغيظ، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغضاء والأذى.

كان أعظم اليهود حقدا، وأكثرهم شرا، كعب بن الأشرف، وكان أشر طوائفهم الثلاثة يهود بنى قينقاع، كانوا يسكنون في داخل المدينة في حي باسمهم، وكانوا يعملون في الصاغة والذهب، والحدادة، وصناعة الأواني، ولأجل ذلك توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد مع الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم .

وبعد نصر بدر، أيضًا اشتد طغيانهم، وتوسعوا في تحرشاتهم، واستفزازهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية للمسلمين، ووصل أذاهم إلى كل من أتى سوقهم من المسلمين حتى النساء.

ولما تفاقم أمرهم، واشتد بغيهم، جمعهم الرسول ﷺ فدعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم من مغبة البغي والعدوان، ولكنهم تمادوا في شرهم، واستمروا في غطرستهم.

❁❁❁

١-سبب الغزوة:

قال ابن عباس: (لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: (يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا). قالوا: (يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا). فأنزل الله ﷻ قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ سورة آل عمران: ١٢.

كان في إجابة بنو قينقاع شبه إعلان سافر عن حرب بينهم وبين المسلمين، ولكن النبي ﷺ كظم غيظه، وصبر المسلمون حتى يروا ما تتمخض عنه الليالي والأيام، وازدادوا في إثارة القلق والاضطراب في المدينة، وبذلك سعوا إلى حتفهم بأنفسهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن أبي عون: (أن امرأة من العرب قدمت بجلَب لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها – وهي غافلة-فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصايغ فقتله – وكان يهوديا – فشَّدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع). ابن هشام ٢/ ٤٧-٤٨.

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة وأحداثها:

حينئذ سار النبي ﷺ بجنوده إلى بني قينقاع، وأعطى لواء المسلمين لحمزة بن عبد المطلب، فلما رأوا جيش المسلمين تحصنوا بحصونهم، فحاصرهم أشد الحصار.

كان ذلك في يوم السبت منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة، دام الحصار خمس عشرة ليلة، إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم، وأموالهم، ونسائهم، وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

كان عبد الله بن أبي بن سلول قد أسلم منذ شهر، وقام بدوره في النفاق، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال: (يا محمد أحسن في موالي) حيث كان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه الرسول ﷺ فكرر ابن أبي مقالته، فأعرض عنه النبي ﷺ.

فأدخل ابن سلول يده في جيب درع النبي ﷺ فقال له الرسول ﷺ: (أرسلني) وغضب حتى رأوا لوجهه ظلا – كناية عن تغير وجه النبي ﷺ – ثم قال النبي ﷺ: (ويحك أرسلني) ولكن المنافق ابن سلول مضى على إصراره، وقال: (لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرئ أخشى الدوائر).

عامل النبي ﷺ هذا المنافق بالحسنى، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

قبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، أخذ منها ثلاث قِسِيٍّ، ودرعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة رماح، وخمسَّ غنائمهم، وكان الذي قام على جميع غنائمهم محمد بن سلمة ﷺ وأغلقت صفحة من صفحات الغدر والخيانة من اليهود في المدينة المنورة.

❁❁❁

٣-درس وعبر من غزوة بني قينقاع:

١-اليهود لهم طبائع نفسية متوارثة عبر أجيالهم التاريخية، وقد حكاها القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها، نقض العهود والمواثيق، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة البقرة: ١٠٠.

وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ سورة النساء: ١٥٥.

وهم قوم لم يسلم منهم أنبياؤهم، فكيف يسلم منهم خصومهم، وهل بعد قتل الأنبياء وتكذيبهم من ذنب أو جريمة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ سورة البقرة: ٨٧.

٢-من ذكاء النبي ﷺ وإنصافه أنه عقد مع كل قبيلة من قبائل اليهود معاهدة مستقلة، حتى إذا أخطأت واحدة لا يؤخذ غيرها بذنبها، والعقوبة تكون على قدر الخطأ، وقد طبق النبي ﷺ هذا القانون عليهم، فلما أخطأ بنو قينقاع عاقبهم وحدهم دون بني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر، فالإنسان يتحمل خطأه هو فقط، وهذا من العدل والإنصاف في قانون الإسلام والمسلمين.

٣-من صفات اليهود الدس والمؤامرات، وإثارة القلق والاضطراب، والوقيعة بين الناس بعضهم مع بعض، وبين الدول بعضها مع بعض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة المائدة: ٦٤.

وهم الذين وقفوا وراء الثورات في أوربا، وقطفوا ثمارها، ووقفوا وراء هدم دولة الخلافة الإسلامية، وتوزيع تركتها، ووقفوا وراء الحرب العالمية الأولى والثانية، وحصلوا مكاسب كبيرة من ورائها، وحرصوا على أن تكون لهم دولة عنصرية في قلب العالم الإسلامي ونجحوا في ذلك.

٤-حاول شاس بن قيس أن يوقع الفتنة بين الأوس والخزرج، حينما رآهم متآلفين بعد فترة من الحروب والعداء والقتال، فأشعل نار الفتنة وأوقد لهيبها، ولكن الله ﷻ سلم، حيث خرج النبي ﷺ مغضبا، لما سمع من حدث وشجار، وقال: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم، دعوها فإنها منتنة). فالفرقة والعنصرية، وتذكر العداوات القديمة، من الأسباب التي تعصف الأمة، وتزكى نار الحرب، فلابد أن يكون أفراد الأمة كلها على أعلى درجة من اليقظة والوعي بالتاريخ، ومكائد الأعداء وحيلهم.

٥-يحترف كثير من اليهود العمل في صياغة الذهب والتجارة فيه، وتجارة الأسلحة، فهي تحرق اقتصاد الدول، من خلال استهلاك السلاح في الحروب المشتعلة.

فهم يبيعون للطرفين معا، وهم الطرف الثالث الذي يربح المال، ويجنى ثمار الحرب، وهم يقومون بعملهم بدقة ومهارة، حتى انتزعوا إعجاب الآخرين في ذلك، فكانوا أعمدة التجارة في سوق المدينة، وعائد التجارة وربحها يصب في جيوبهم، وقوة اقتصادهم، ومن يملك المال يملك القرار.

٦-اليهود من قديم الزمان يمتلكون أدوات الحرب والقتال، ويتدربون كثيرا على فن استخدامه، وعند المواجهة واللقاء تجدهم أحرص الناس على حياة، وأخوف الناس من حرب المواجهة المباشرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الحشر: ١٤.

وقالوا للرسول ﷺ: (لا يغرنك أنك لقيت أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا). وعند المواجهة لجأوا إلى الحصون، ثم استسلموا لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ.

٧-ذهب النبي ﷺ إلى حي بني قينقاع ليدعوهم إلى الإسلام، فأعرضوا عنه، وردوا رد قبيحا، وقد أقام عليهم النبي ﷺ الحجة، وهم أهل كتاب سابق، ولهم نبي مرسل، ولذلك لا يقبل منهم ما هم عليه من دين، ما لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ وفي الحديث: (من سمع بي من أهل الكتاب ثم لم يؤمن بي إلا كان من أهل النار).

٨-حرص اليهود على إكراه المرأة المسلمة أن تكشف عن وجهها، وهي تقضي بعض أمورها في سوقهم، وقد رفضت أن تفعل ذلك، فلجأوا إلى حيلة في كشف عورتها.

وهكذا اليهود عبر التاريخ، يقفون وراء التبرج والتكشف والعُري، وإثارة الشهوات، حتى تنحرف الفطر السليمة، وتثار الغرائز الكامنة، وتنتشر الرذيلة والفاحشة بين الناس، ولا يبق هناك شيء عزيز له قيمة أخلاقية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة النور: ١٩.

إذا رأيت بلايا منها الفؤاد تفتت ∴ فتش عليها تجدها من اليهود تأتت

❁❁❁

(١١) غزوة أحد دروس وعبر.

١. أسباب الغزوة.

٢. خط سير الغزوة.

٣. أحداث الغزوة.

٤. مواقف إيمانية.

٥. دروس وعبر من غزوة أحد.

❁❁❁

١-أسباب الغزوة:

بعد هزيمة قريش في معركة بدر، وقتل أشرافها، أحبَّت أن تأخذ بالثأر والانتقام، وتأخرت في البكاء على قتلاهم، وفداء أسراهم، حتى لا يتفطن المسلمون لمأساتهم، وكذلك يستعدون للثأر لقتلاهم، بحرب شاملة ضدّ المسلمين، تشفى غيظها، وتذهب غيظ قلوبها.

قام من بقى من كبار مكة في الاستعداد لخوض المعركة، واحتجزوا أموال قافلة أبي سفيان لتمويل الجيش، والانفاق عليه، ونزل في ذلك قوله، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة الأنفال: ٣٦.

وفتحوا باب التطوع لمن أراد من القبائل المجاورة المساهمة في حرب المسلمين، واستخدموا أبا عزة الشاعر وغيره – الإعلام في ذلك الوقت-في تحريض القبائل

وتعبئتها ضد المسلمين، وكان من أشد المحرضين أبو سفيان، بعد ما فشل في غزوة السويق، وكذلك خسارة قريش في سرية زيد بن حارثة، فقررت التعجيل بخوض معركة فاصلة بين الطرفين.

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة:

بعد مرور سنة من غزوة بدر، تجهزت قريش بثلاثة آلاف مقاتل، واصطحبوا معهم النساء، ليستميت الرجال في الدفاع عن الحرمات والأعراض، واصطحبوا مئتين من الفرسان، بقيادة خالد بن الوليد، بينما القيادة العامة لأبي سفيان.

لما تحرك الجيش المكي، أرسل العباس بن عبد المطلب ﷺ رسالة إلى النبي ﷺ يخبره فيها بتفاصيل جيش مكة، واستعداداته مع رسول له، فقطع المسافة في ثلاثة أيام، فقرأها أُبي بن كعب ﷺ على الرسول ﷺ وطلب منه الكتمان، وتشاور النبي ﷺ مع الصحابة، ﷺ وأصبحت المدينة في حالة استنفار عام، فكان لا يفارقهم السلاح حتى وهم في الصلاة.

وقام عدد من الصحابة ﷺ بحراسة مبيت النبي ﷺ ومداخل المدينة، حتى لا يؤخذوا على غرة، وقامت دوريات من المسلمين بمتابعة تحركات العدو، حول الطرق التي يمكن أن يطرقوها للإغارة على المسلمين.

تحرك جيش مكة على الطرق الرئيسية المعتادة، حتى اقترب من المدينة، فسلك وادي العقيق، ثم نزل قريبا من أحد، شمال المدينة.

بعدما نقلت الأخبار إلى النبي ﷺ عسكرة جيش مكة بالقرب من أحد، عقد مجلس استشاري مع كبار الصحابة ﷺ وأخبرهم عن رؤيا رآها: (رأيت بقرًا يذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثُلما، ورأيت أني أَدخلت يدي في درع حصينة). وتأول البقر بنفر من الصحابة ﷺ يقتلون، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

قدم النبي ﷺ رأيه للصحابة بأن يتحصنوا بالمدينة، وأن لا يخرجوا منها، فإذا دخل المشركون المدينة قاتلهم الرجال في طرق المدينة وسككها، والنساء من أعلى البيوت بالحجارة، وإن أقاموا خارج المدينة قاموا بشر مقام.

وكان عدد من فضلاء الصحابة ﷺ ممن فاتهم الخروج يوم بدر أشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وكان من بينهم، حمزة بن عبد المطلب ﷺ رغم حسن بلائه يوم بدر، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، وصلى النبي ﷺ بهم الجمعة، ووعظهم وعبأهم، وأخبرهم أن لهم النصر بما صبروا.

أحس سعد بن معاذ وأسيد بن حضير أن الصحابة ﷺ استكرهوا النبي ﷺ على الخروج، فردوا الأمر إليه، فخرج إليهم من بيته، ولبس درعين، وقال لهم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته – أي الدرع – أن يضعها حتى يحكم الله بينه بين عدوه).

أعطى النبي ﷺ لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، والأوس لأسيد بن حضير، والخزرج للحباب بن المنذر، وعدد الجيش ألف مقاتل، فيهم مائة دارع، وليس فيهم فرسان، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

لما جاوز ثنية الوداع، رأى كتيبة حسنة التسلح، منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنهم فأخبروه أنهم من اليهود، يرغبون في القتال، فسأل هل أسلموا؟ فقالوا لا فقال: (لا نستعين بأهل الكفر على أهل الشرك).

ولما وصل الجيش عند موضع يقال له الشيخان استعرض الجيش، ورد صغار الصحابة ﷺ وأجاز رافع بن خديج، وسُمرة بن جندب، على صغر سنهما، فالأول كان راميًا، والثاني كان أقوى منه في المصارعة، وصلى المغرب والعشاء في المكان، وبات هنالك في ذلك الموضوع.

اختار ﷺ خمسين رجلا للحراسة، تحت قيادة محمد بن مسلمة ﷺ وتولى ذكوان بن عبد الله حراسة النبي ﷺ خاصة، ورجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش، تخزيلا للمسلمين، وأوشكت بنو حارثة، وبنو سلمة أن يفشلا، ولكن الله تولاهما، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ سورة آل عمران: ١٢٢.

ونزل في المنافقين قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ سورة آل عمران: ١٦٧.

انطلق ما بقي من الجيش، وكانوا سبعمائة إلى أحد من طرق جانبية، حيث كان جيش الكفر يقطع عليهم الطريق، فقال النبي ﷺ: (من رجل يخرج بنا على القوم من كثب، من طريق، لا يمر بنا عليهم).

فقام بذلك أبو خيثمة، واختار طريقا قصيرا يمر بمزارع بني حارثة، ومر بحائط مربع بن قيظى، المنافق الضرير، فأخذ يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول: (لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله). فابتدره القوم ليقتلوه، فقال الرسولﷺ: (لا تقتلوه، فهذا الأعمى، أعمى القلب، وأعمى البصر).

فعسكر النبي ﷺ بجيشه مستقبلا المدينة، وظهره إلى هضاب جبل أحد، وجيش العدو فاصلا بين المسلمين والمدينة.

❁❁❁

٣-أحداث الغزوة:

عبأ النبي ﷺ الجيش، واختار منهم خمسين من الرماة الماهرين، تحت قيادة عبد الله بن جبير، وأمرهم بالتمركز على جبل الرماة، وقال لهم ﷺ: (لنضح الخيل عنا بالنبل، ولا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، ولا تؤتين من قبلك). وقال للرماة: (احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا).

بهذه الخطة سد النبي ﷺ الثُلمة الوحيدة، التي يمكن من خلالها أن يلتف فرسان قريش من وراء صفوف المسلمين، كانت الخطة حكيمة ودقيقة جدا، تتجلى فيها عبقرية النبي ﷺ ولا يمكن لأي قائد مهما كانت خبرته وحنكته أن يضع خطة أدق وأحكم من ذلك.

فالنبي احتل أفضل موقع لميدان المعركة، وحمى ظهره بالرماة، واختار لمعسكره موضعا مرتفعا يحتمي به إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين، ولا يلجأ للفرار، وألجأ أعداءه إلى موضع منخفض، يصعب عليهم الإفلات من المسلمين.

حرض النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وجرد سيفا باترا، وقال من يأخذ السيف بحقه؟ فقام إليه رجال من كبار الصحابة رضي الله عنهم لكنه أعطاه لأبي دجانة، سماك بن خرشة.

قال: وما حقه؟ قال: (أن تضرب به وجوه العدو حتى ينثني) فقال: (أنا أخذه بحقه يا رسول الله) فأعطاه إياه، وكان لأبي دجانة عصابة حمراء، إذا لبسها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت، فمشى يتبختر بين الصفين فقال الرسول ﷺ: (إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن).

أما المشركون فكان لواؤهم إلى بنى عبد الدار، وذَّكرهم أبو سفيان بما وقع يوم بدر، ليستثير حماستهم، وقال: (إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، فإذا زالت زالوا).

حاول أبو سفيان الوقيعة في صفوف الأنصار، فأرسل إليهم يستميلهم، فيخلوا بينه وبين المهاجرين والرسول ﷺ وباءت محاولاته بالفشل، أمام قوة إيمان الأنصار.

حاول أبو عامر الفاسق أن يؤلب المشركين على المسلمين، ويخذل المسلمين، وفشلت محاولته أيضا.

خرجت نسوة من قريش تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف لتحميس المشركين، ويضربن بالدفوف، ويحرضن على القتال، ويحركن المشاعر.

أول وقود المعركة حامل لواء المشركين، طلحة بن أبي طلحة العبدرى، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج على ملأ يدعو للمبارزة، فتقدم إليه الزبير بن العوام، ووثبت إليه على جمله، وألقاه على الأرض وذبحه، فكبر المسلمون، وأثنى النبي ﷺ على الزبير، وقال: (إن لكل نبي حواريا، وحواري الزبير).

دارت معركة شرسة وحامية الوطيس حول لواء المشركين، وقتل عشرة من حملة لواء المشركين، أبيدوا عن آخرهم، فحمله غلام لهم حبشي، وأبدى من صفوف الشجاعة النادرة حتى بترت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه لئلا يسقط، حتى قتل وهو يقول: (اللهم هل أعذرت).

وبعد سقوط الراية اشتد القتال في كل مكان، وكانت روح الإيمان تسري في صفوف المسلمين، وهم يقولون: (أَمت أَمت).

قاتل أبو دجانة بسيف الرسول ﷺ قتال الرجال الأشداء، حتى أمعن القتل في الناس، فكان لا يلقى مشركا إلا قتله، وهو يقول:

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي ∴ وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

أَلَّا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيُّولِ ∴ أَضْرِبُ بِسَيْفِ اللهِ وَالرَّسُولِ

وقتل أبو دجانة رجلا من المشركين، كان يُجهز على الجرحى، وأمعن في هدّ الصفوف حتى وصل إلى قائدة نسوة قريش، فولولت، فأكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة، وكانت هذه هند زوج أبي سفيان.

وقاتل حمزة قتال الليوث المهتاجة، فكان يندفع إلى قلب جيش المشركين، فكانت الرقاب تتطاير على يده، كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، لكنه صرع غيلة، بحربة وحشي بن حرب، لينال حريته من جُبير بن مطعم، لمقتل عمه يوم بدر.

فكانت السيطرة طوال المعركة للمسلمين، بثبات كتيبة الرماة على جبل الرماة، حيث هجم فرسان مكة ثلاث مرات، لكن الرماة رشقوهم بالنبل، حتى فشلت محاولتهم الثلاث، ونزلت الهزيمة بالمشركين، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين، ولجأت قريش للفرار والانسحاب، حتى ظهرت سوق النساء من الهروب والعدو.

وهنا وقعت غلطة الرماة الفظيعة، حيث نزل أغلبهم من موقعهم لجمع الغنائم، بينما قائدهم ذكرهم بأوامر الرسول ﷺ لكن الأغلبية الساحقة قالت: (والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة).

فخلت ظهور المسلمين، فانتهز خالد الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة على من بقى على جبل الرماة، عبد الله بن جبير وأصحابه، وصاح فرسانه صيحة عرفها المشركون الفارون، فانقلبوا على المسلمين.

رفعت عمرة بنت علقمة لواء المشركين المطروح على التراب، وتجمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شقي الرحى، وباغت خالد مؤخرة الجيش الإسلامي، والتي كان يدير منها الرسول ﷺ المعركة، ورفع النبي ﷺ صوته: (إليَّ عباد الله).

علم بموضعه المشركون، فخلصوا إليه قبل أن يصل المسلمون، فكان المسلمون ما بين فار إلى المدينة، ومنهم من انطلق فوق الجبل، وطائفة اختلطت بالمشركين، حتى قتل المسلمون فيها خطأ والد الصحابي الجليل، حذيفة بن اليمان، وفيما بعد تصدق بديته على المسلمين، فكان فيه كثير من الخير حتى لحق بربه.

أشيع بين المسلمين أن محمدًا ﷺ قد قتل، وكادت تنهار رُوحهم المعنوية، فمنهم من توقف عن القتال، ومنهم من ألقى سلاحه، ومنهم من فكر في الاتصال بابن سلول، ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان.

❁❁❁

٤-مواقف إيمانية:

كان أنس بن النضر رضي الله عنه قد قدم بتجارة له من الشام، فلما علم بأن رسول الله ﷺ والمسلمين بأحد، ترك تجارته وأخذ سيفه وانتقل إلى أحد، فمرَّ على بعض الصحابة رضي الله عنهم وقد ألقوا أسلحتهم وقالوا قتل رسول الله ﷺ قال: (ما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين).

فقابله سعد بن معاذ ﷺ فقال أين يا أبا عُمير؟ فقال: (واها لريح الجنة يا سعد، والله إني لأجده دون أحد). ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فعرفته أخته الربيع بعلامة في بنانه، وفيه بضع وثمانون جرحًا، ما بين طعنة رمح، وضربة سيف، ورمية بسهم.

نادى ثابت بن الدحداح قومه فقال: (يا معشر الأنصار، إن كان محمد ﷺ قد قتل فإن الله حي لا يموت، قاتلوا عن دينكم فإن الله مظفركم وناصركم).

ومرَّ رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال: (يا فلان أشعرت أن محمدًا قد قُتل، فقال إن كان محمد قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم).

بمثل هذه الروح المعنوية العالية، استبسل المسلمون، وعدلوا الأفكار السلبية السابقة بالصمود والثبات، كما تأكدوا من خبر مقتل النبي ﷺ أنه مختلق، فزادهم قوة على قوتهم، بينما هناك فئة تترست حول الرسول ﷺ وكانوا في مقدمة المدافعين، حيث كان الحراك محتدمًا حوله.

ظهرت نوادر الحب والتفاني والبسالة والبطولة، حيث استشهد سبعة من الأنصار حول رسول الله ﷺ وبقى طلحة، وسعد بن أبي وقاص، وطمع المشركون في القضاء عليه، فأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنتيه، وشج في رأسه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله).

ونزل قوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ سورة آل عمران: ١٢٨. ثم مكث ساعة، ثم قال: (اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون).

كان طلحة وسعد من أمهر رماة العرب، فتناضلا حتى أجهض مفرزة المشركين، ونثر النبي ﷺ كنانته لسعد وقال: (إرم فداك أبي وأمي).

قاتل طلحة حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، وشلت فيما بعد، السبابة والتي تليها، وقال فيه النبيﷺ : (من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي- على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله).

ونزع أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه حلق المغفر من وجنتيه، فسقطت ثنيتاه، ثم قال الرسول ﷺ: (دونكم أخاكم فقد أوجب). ثم تجمع حول الرسول ﷺ عصابة من الصحابة رضي الله عنهم وتضاعف ضغط المشركين، حتى سقط الرسول ﷺ في حفرة من التي حفرها أبو عامر الفاسق، فجحشت ركبته، وحفظ الله ﷻ نبيه ﷺ من القتل فكان ممنوعًا محفوظًا.

ومن البطولات النادرة موقف أبي دجانة، الذي تترس حول الرسول ﷺ بظهره، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

وقاتلت أم عمارة رضي الله عنها ابن قُميئة، فضربها على عاتقها، فتركت جرحا أجوف، وضربته عدة ضربات فنجا منها، بسبب درعان كان يلبسهما.

وقاتل مصعب بن عمير ﷺ بضراوة بالغة، وكان اللواء بيده اليمنى، فضربه ابن قميئة حتى قطعت، فحمله بشماله، وصمد حتى قطعت، ثم حمله بعضديه فاستشهد، قتله ابن قميئة وهو يظن أنه قتل رسول الله ﷺ لشبهه به، فصاح ابن قُميئة إن محمدًا قد قتل. فخففتَ هجمات المشركين؛ لظنهم أنهم نجحوا في غايتهم.

وأعطى النبي ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب ﷺ فقاتل قتالا شديدا، واستطاع الرسول ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فعرفه كعب بن مالك، وصاح في الناس، فوصلهم الخبر، والتفوا حول الرسول ﷺ حوالي ثلاثين رجلا من الصحابة ﷺ وأخذ الرسول ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وفشلت محاولات المشركين أمام بسالة الصحابة ﷺ.

حاول عثمان بن المغيرة أن ينال من الرسول ﷺ فتصدى له الحارث بن الصمة ﷺ فضربه على رجله فأقعده، ثم دفف عليه، وأخذ سلاحه، ولحق بالرسول.

عطف عبد الله بن جابر من فرسان مكة على الحارث بن الصمة ﷺ فضربه على عاتقه فجرحه، فانقض عليه أبو دجانة ﷺ وأطار رأسه بسيفه.

حاول أبي بن خلف أن ينال من الرسول ﷺ فقال الرسول ﷺ: (لهم دعوه) فرماه النبي ﷺ بحربة في عنقه فخدشته خدشا صغيرا، فاحتقن الدم، وقال: (قتلني والله محمد) فمات في العودة إلى مكة في مكان يسمى (سَرُفْ).

ولما استقر النبي ﷺ بالشعب، قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين، فقال النبي ﷺ: (اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا). فقاتلهم عُمر بن الخطاب ورهط معه، حتى أهبطوهم من الجبل.

وقيل كان سعد بن معاذ يردهم بسهم من كنانته ثم يعود إليه، فيرمي به آخر فيعود إليه، فقال هذا سهم مبارك، فجعله عنده إلى أن مات.

وبعد فشل آخر هجوم وهم لا يشكون في قتل الرسول ﷺ فقاموا بتشويه جثث الشهداء، حيث قامت نساؤهم بقطع الأذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون، وبقرت هند بنت عتبة، كبد حمزة فلاكتها فلم تستطيع أن تسيغها، فلفظتها.

وكان أحد المشركين يجهز على الجرحى، فتصدى له أبو دجانة ﷺ فقتله.

وكانت عائشة وأم سليم تحملان القرب على ظهورهما، وتفرغانها في أفواه القوم من الجرحى.

وتصدت أم أيمن للعائدين إلى المدينة قبل انتهاء المعركة وهي تحثو التراب في وجوههم، وهى تقول: (هاك المغزل، وهلم سيفك).

لما تهيأ المشركون للانصراف، قام أبو سفيان نحو جبل أحد، ووقعت الملاسنة بينه وبين الصحابة ﷺ في قصة مشهورة، تفاصيلها في كتب السيرة النبوية والتاريخ.

ثم تواعدوا على بدر من العام القادم، وأرسل النبي ﷺ خلفهم على بن أبي طالب ﷺ لينظر ماذا يفعلون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فعلم النبي ﷺ أن وجهتهم مكة.

أرسل النبي ﷺ زيد بن ثابت ﷺ ليتفقد سعد بن الربيع ﷺ ويسأله كيف تجدك؟ فقال: (أجد ريح الجنة) وقال: (لا عذر لكم عند الله ﷻ إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف) ثم فاضت روحه.

ووجد الأصيرم وبه رمق يسير، فسألوه عن قتاله، فقال أسلمت، فقال النبي ﷺ: (هو من أهل الجنة) وقال أبو هريرة ﷺ: (ولم يصل لله صلاة قط).

ووجدوا في الجرحى قُزمان، قاتل قتالا شديدا، وقتل ثمانية من المشركين، لكنه لم يكن مسلمًا، وإنما كان يقاتل عن أحساب قومه، ولم يستطع أن يتحمل جراحاته، فنحر نفسه، وكان إذا ذكر للرسول ﷺ يقول: (إنه من أهل النار).

وعلى عكس قزمان كان مخيريق اليهودي، أخذ سيفه وعدته، وقال إن أُصيبت فمالي لمحمد ﷺ يصنع فيه ما يشاء، ثم قاتل حتى قتل، فقال الرسول ﷺ: (مخيريق خير يهود).

ثم جمع النبي ﷺ الشهداء عند أُحد، فدفنهم بثيابهم بلا غسل، ويدفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد، ويُقدم أكثرهم أخذًا القرآن، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء، أنه ما من جريح يجرح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك).

وتفقدوا حنظلة ﷺ فوجدوه قد فارق الحياة، وثيابه تقطر منه الماء، فقال الرسول ﷺ: (إن الملائكة تغسله) ولما سألوا أهله أخبرتهم أنه خرج جنبًا.

ولما رأى النبي ﷺ ما أصاب حمزة، اشتد حزنه عليه، واحتسبته أخته صفية وصبرت، ودفنه النبي ﷺ مع ابن أخته، عبد الله بن جحش، وبكاه النبي ﷺ بكاءً شديدا.

وكفن مصعب بن عمير ﷺ في بردة، إن غُطى راسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدت رأسه، فقال النبي ﷺ: (غطوا رأسه واجعلوا على رجليه الإذخر).

وصلى عليهم النبي ﷺ فقال للصحابة ﷺ: (استووا حتى أثني على ربي) فصاروا صفوفا فقال: (اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك ورزقك).

بعد أن فرغ النبي ﷺ من دفن الشهداء، عاد إلى المدينة، فظهرت نوادر الحب والتفاني.

لقيته حمنة بنت جحش ﷺ فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش ﷺ فاسترجعت واستغفرت، وخالها حمزة ﷺ فاسترجعت واستغفرت، ثم نعي إليها زوجها مصعب ﷺ فصاحت وولولت، فقال: (إن زوج المرأة منها بمكان).

مرّ الصحابة ﷺ بامرأة من بني دينار، أصيب زوجها وأخوها وأبوها، فقالت: (فما فعل رسول الله ﷺ) قالوا: (خيرا هو بحمد الله كما تحبين) قالت: (أرونيه حتى أنظر إليه) فلما رأته قالت: (كل مصيبة بعدك جلل).

وجاءت أم سعد بن معاذ ﷺ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه ﷺ فقال: (أمي يا رسول الله ﷺ فقال مرحبا، ثم عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقال أما إذ رأيتك فقد اشتويت المصيبة،-أي استقللتها-ثم دعا لأهل من قتل بأحد.

فقال: (يا أم سعد أبشري، وبشري أهلهم، أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا، وشفعوا في أهليهم جميعًا). ثم قالت: يا رسول الله ﷺ ادع لمن خلفهم، فقال: (اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خُلفوا).

❁❁❁

٥-الدروس والعبر المستفادة من غزوة أحد:

١-التحذير الشديد من مخالفة أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ فلابدَّ أن يعقبه سوء العاقبة، وشؤم الوقوع في النهي والمخالفة، فلما ترك الرماة أماكنهم مخالفين أوامر الرسول ﷺ دفع الصحابة ﷺ ثمنا غاليا من أنفسهم ودمائهم، وتحول النصر إلى جولة عكسية على المسلمين.

٢-أن ما نزل بالرسول ﷺ والصحابة ﷺ إنما هو لون من البلاء، حتى لا يفتن المسلمون بالنصر الدائم، فلابدَّ من تمييز صفوف المسلمين، الصادقين من غيرهم.

٣-المحن والحروب تكشف عن الصف المسلم وما به من دخن، فكشفت الغزوة عن المنافقين المختفين بين الصفوف، فكانت المكاشفة الفاصلة، وظهر النفاق علانية، وعلم المسلمون أن لهم عدوا داخليا ليحترزوا منه، ويستعدوا له.

٤-تأخر النصر عن المسلمين بسبب المخالفة لأوامر النبي ﷺ إذ لو نزل النصر مع المخالفة، لتجرأ بعض المسلمين على ذلك فيما بعد، ولم يتعلموا الدرس المطلوب.

٥-قد يهيئ الله ﷻ لبعض عباده المسلمين منازل عليًا في الجنة، لا يدركوها بأعمالهم من العبادات، فقيض الله لهم من الابتلاءات والمحن التي تثقل موازينهم، وترفع درجاتهم، ويبلغوا منازلهم في الجنة، فكل بلاء هو لصالح صاحبه، إذا قبله برضا واحتساب وتسليم.

٦-إن مرتبة الشهداء هي أعلى مرتبة في الجنة، فرغَّب الإسلام المسلمين في الحرص عليها، وعرفهم طريق الوصول إليها، بل جعلها غاية المسلم من الحياة كلها هي رضا الله، والوصول إلى الجنة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ سورة التوبة: ١١١.

٧-كشفت الغزوة عن المواقف الإيمانية العالية، والبطولات النادرة، والتضحيات الغالية، سواء في الصور الفردية، مثل أنس بن النضر، وأبى دجانة، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، ومصعب بن عمير، أو المواقف الجماعية في الصحابة ﭫ الذين التفوا حول الرسول ﷺ مضحين بأنفسهم في سبيل نجاته، وجعلوا أرواحهم فداء لنفسه، ورقبتهم دون رقبته، وحياتهم فداء لحياته ﷺ.

٨-كشفت الغزوة أيضا عن الصور الإيمانية النادرة للنساء، حيث استصغروا مصائبهم في أزواجهم وآبائهم وأولادهم، ما دام رسول الله ﷺ سليمًا معافًا، ولم تنل الجروح منه شيئًا.

٩-كشفت الغزوة عن العبقرية النبوية العسكرية في التخطيط للمعركة، وادارتها بنجاح، وحينما انقلبت موازين المعركة، استطاع أن يطور خطته ليحافظ على جيشه، حينما أمرهم بأن يتفرقوا في شعب الجبال، ثم واصل المسير خلف المشركين إلى حمراء الأسد، لأنها كانت جولة، وليست هزيمة.

١٠-علي المسلمين أن يتعلموا من أخطائهم، فلا تتكرر الأخطاء مرة أخرى، فاختلف المسلمون حول توزيع الغنائم في بدر، ونزل القرآن الكريم لعلاج المشكلة، ومع ذلك كان سبب الجولة التي نزلت بالمسلمين، وأصابت منهم عددًا من الشهداء، وتعرض النبي ﷺ للقتل، إنما هي الغنائم، والحرص على الدنيا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ سورة آل عمران: ١٦٥.

ستظل غزوة أحد التي خلد ذكرها القرآن الكريم درسا قويا للمسلمين، في كل عصر ومصر، في فقه المعارك، وأسباب النصر، وعوامل القوة، وأسباب الضعف، وسر تحول النصر إلى هزيمة.

❁❁❁

(١٢) أحد جبل يحبنا ونحبه.

أخي القارئ الكريم، ماذا عساك اليوم أن تقرأ، أو تسمع عن هذا العنوان السابق، إنك تقرأ حديث محب لا تزوير خب، تقرأ حديث عاشق ألف بصره صباحا ومساء هذا الجبل الأشم، والطود المنيف، الذي سعدت بجواره وزيارته بضع سنوات، فلم أكن أراه جمادا ولا حجارة ولا صخورا، ولا جبلا عاديا مثل أي جبل.

وحينما أكتب عن أحد لا أكتب عن طوله، وعرضه، وارتفاعه، وضخامته، وكبر حجمه، وصلابته، ورسوخه وثباته في مكانه، فذلك أمر يحسنه كل أحد، ممن درس تاريخ المدينة وجغرافيتها.

إنما أكتب عنه بقلم آخر، بقلم محب وعاشق، أكتب عن كائن حي يتكلم بغير لسان، ويسمع بغير آذان، ويشم بغير أنف، ويدور مع الكون والحياة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة النمل الآية (٨٨).

إنني أرى أحدا كائنا حيا، أشعر بالهواء في رئتيه وهو يتنفس، وصوت شهيقه وزفيره يلامس أذني، وأرى المطر حينما ينساب عليه من السماء، كأنه يغتسل ويتطهر من ما علق به من غبار الطريق، وأثار الرياح، فيمكث ماؤه في المهراس، ماءً غير آسن، يروي العطاشى، وينتفع به الزائرون.

لقد تعاظم هذا الجبل عندما صعد عليه النبي ﷺ وأصحابه، فتحرك وماد، وذهب ذات اليمين وذات الشمال، فكلمه النبي ﷺ حديث المحب، ففي الحديث: (صَعِدَ النبيُّ ﷺإلى أُحُدٍ ومعهُ أبو بَكْرٍ، وعُمَرُ، وعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، قَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ فَما عَلَيْكَ إلَّا نَبِيٌّ، أوْ صِدِّيقٌ، أوْ شَهِيدَانِ) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٦٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ.

فثبت على حاله جبلا راسخا، ووتدا ثابتا، ومعلما بارزا، وسيستمر كذلك إلى يوم القيامة في موضعه، إلا ان يشاء الله.

نعم لقد تعاظم أحد أمام جبال الدنيا كلها، لأنه سعد بأقدام المصطفى فوق هامته، وعلى صفحة عاتقه، فاستمد شرفه وقيمته من تلك اللحظة التاريخية، التي لم تقع لغيره من الجبال إلا نادرا.

لقد كان هذا الجبل شاهدا على أحداث غزوة أحد، التي نسبت إلى اسمه، وراي المشاهدة الدامية التي تعرض لها الصحابة، وشهد تغير مهب الريح، من النصر الساحق، إلى نازلة محدودة الأثر، تركت أثارها في نفس النبي ﷺ وأصحابه، فأسرع الجبل ليفتح شعابه ليحتضن النبي ﷺ وأصحابه مما أحاط بهم من مكيدة، و ما أصابهم من جراح، فتفرق الصحابة في شعبه، وجلس النبي ﷺ في شقه، وقام الصحابة بتضميد جراحه وجراحهم، فكان استراحة مجاهد، وملجأ محارب، ليعيدوا الكرة مرة أخرى، ويتتبعوا المشركين إلى حمراء الأسد، فولوا هاربين.

إن هذا الجبل الأشم، لم تنل منه عوامل التعرية على مر الأزمان، و لم تزده الأعوام إلا قوة وصلابة وعزيمة وثباتا على ما هو عليه، و كيف لا وقد نال شرف

الصحبة لرسول الله، و عاطفه الحب المتأججة معه، فكان النبي ﷺ كلما ذهب والصحابة إلى هناك، أو مروا بجواره، تذكرا الآلام التي أصابتهم في أحد، فأراد النبي ﷺ أن يعدل مسار الماضي في ذاكرة الصحابة، لتكون درسا ينفعهم في الحاضر والمستقبل، فقال هذا أحد يحبنا ونحبه، فهو جبل لكن له قلب يحب، وهو جماد لكنه صاحب مشاعر وأحاسيس، وهو حجارة وصخور صماء، لكنه في نظر المحبين واحة غناء، وحديقة فيحاء، وحوله أرض صحراء قاحلة، تحولت الآن في عيون المحبين إلى نخيل وبساتين، وظل ظليل.

وحينما تلاسن أبو سفيان بأن رفع عقيرته متباهيا بالنصر المحدود، خرج من بين شعاب أحد صوت الفاروق عمر مدويا، ليرد عليه كلمة بكلمة، وجملة بجمل، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فقال الفاروق: الله أعلى وأعز، و قال: الله مولانا ولا مولى لكم، وقال: شهدائنا في الجنة وقتلاكم في النار، ليس سواء.

ولا زالت معاني هذه الكلمات تتردد في جنبات الفضاء، وآفاق السماء، لتدوي مع الأذان كل يوم خمس مرات، مع هذا النداء العلوي، الذي يخرج من الأرض فتنفتح له أبواب السماء، ففي الآذان كلمتي التوحيد، فاذا كانت غزوة بدر علمت الصحابة لا إله إلا الله، فان غزوة أحد علمت الصحابة محمدا رسول الله.

إن أحدا يرقد بجواره سبعون من الأطهار الأبرار، يتقدمهم سيد الشهداء أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وبجواره أول سفير في الإسلام في المدينة، مصعب بن عمير، حامل الراية واللواء، ومعهم ثلة من الأخيار الأطهار الأبرار، حزن النبي ﷺ

على فراقهم، وتألم لرحيلهم، فكان يزورهم بين الحين والحين، بعد منتصف الليل، يقرؤهم السلام، ويشعرون بحضوره، ويكسبون دعائه، ويبشرهم بمقاعد هم من الجنة، منهم من وطئها بعرجته، ومنهم غسيل الملائكة، ومنهم من كلمه الرحمن مشافهة كفاحا، ومنهم حملة القرآن، وكفى شهادة القرآن لهم: (وما بدلوا تبديلا).

فاذا كانت ساحة أحد شهدت أحداث الغزوة الدامية، فان ساحته، أيضا ضمت رفات عظماء التاريخ، وعمالقة الإسلام، الذين قدموا الدماء رخيصة في سبيل، الله لتكون كلمه الله هي العليا.

إن هذا الجبل العظيم دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وأصبحت له قيمه في ميزان الإسلام، ففي ظلاله يعيش شهداء أحد، وبجواره جبل الرماة، يقصده الزائرون ليتدارسوا أحداث الغزوة في مسرح أحداثها، وعلى جبينه وضعت الكشافات التي تنير للعابرين من حوله طريقهم وسبيلهم، وبجواره مساكن أحفاد الأنصار، وخلفه الآن حديقة خضراء، يؤمها أهل المدينة، يستنشقون الهواء الباردة القادم من خلفه، كانه قادم من جنه الفردوس، وكيف لا؟ وقد قال أنس بن النضر- إني أشم رائحة الجنة من خلف أحد، فما أزكاها من رائحة! وما أجملها من صحبة! وما أعظمها من جوار!.

إنني أكتب عن شاهد ومشهود، على أحداث جسام، وقعت في تاريخ الإسلام، شاهد على الشهداء الذين قدموا أرواحهم ومهجهم وأنفسهم رخيصة لرفع رايه التوحيد، شاهد على صمود تلك الثلة الكريمة، التي تترست حول رسول

الله دفاعا عن جسده الشريف، حتى لا يصل إليه الأعداء، شاهد على نزول الملائكة وقتالهم مع الصحابة، في كرهم وفرهم خلف المشركين في جوله المعركة الاولى، شاهد على المواقف الفردية من البطولات الفريدة التي صنعها أبطال في ثباتهم في الميدان، أمثال أنس بن النضر، وحنظلة بن أبي عامر، وعبد الله بن حرام، وعبد الله بن جحش.

وأما كونه مشهود فإن النبي ﷺ قد شهد له بالحب الصادق المتبادل منه ومن الصحابة، والمسلمون يشهدون كذلك عند زيارتهم لشهداء أحد، بالحب الصادق لهم وله أيضا.

إن أحدا تاريخ حافل بالاحداث، وماضي تليد شاهد على التاريخ، وحاضر زاهر تسترد به الامة ذاكرتها، ومستقبل مشرق لمن تعلم الدرس واخذ العبرة، كيف لا يكون كذلك، وقد نال شرف صحبه النبي ﷺ وصحابته الأطهار، واستوعب ذاكرة التاريخ في غزوه خلدها القرآن بذكرها في آل عمرآن، وسيبقى شاهدا على صدق رسالة الإسلام، ما تعاقب الليل والنهار.

كأنني أسمعه الآن وهو يقول هل عرفتم من أكون؟ وما شرفي؟ وما تاريخي؟ ومع أي صحبة عشت؟ ومع أي رجال تعاملت؟ ومع أي عظيم تحدث؟ فمن كالجبال مثلي؟ ومن من الجبال نال منزلتي؟ ويأتي الجواب القوي الصريح، لا أحد **(إنه أحد يحبنا ونحبه).فنسال الله أن يحشرنا مع النبي ﷺ وصحابته الأخيار.**

وشهداء أحد الابرار، آمين.

❁❁❁

(١٣) غزوة بني النضير دروس وعبر.

مقدمة.

١. أسباب الغزوة.

٢. خط سير الغزوة وأحداثها.

٣. دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

مقدمة:

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، وأنزل الله فيها سورة الحشر بأكملها، وكان ابن عباس ﷺ يقول عن سورة الحشر: سورة النضير.

كان اليهود في المدينة أصحاب دس ومؤامرات، ويجاهرون بالحقد والعداوة، ويتفننون في صناعة الحيل، لإيقاع الايذاء بالمسلمين، دون مواجهه بالقتال المباشر، وبعد إجلاء بني قينقاع، وقتل كعب بن الأشرف، خافوا على أنفسهم فاستكانوا، والتزموا الهدوء والصمت.

لكنهم بعد وقعة أحد تجرؤا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين والمشركين من أهل مكة سرا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين.

بعد وقعة الرجيع وبئر معونة، ازدادوا جرأة وجسارة، حتى قاموا بمؤامرات عديدة، تهدف القضاء على النبي ﷺ.

❁❁❁

١-أسباب الغزوة:

خرج النبي ﷺ إلى بني النضير مع نفر من أصحابه، ليعينوه في دية الكلابيين، الذين قتلهما، عمرو بن أمية الضمري، وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة، فقالوا: (نفعل يا أبا القاسم اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك) فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم، ينتظر وفاءهم بما عاهدوا ووعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي، وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم.

خلا اليهود بعضهم إلى بعض، وتأمروا على قتله، وقالوا أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد فيلقيها على رأسه يَشدُخه بها؟ فقال: أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فو الله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم ومؤامراتهم، فنزل الوحي على النبي ﷺ فترك المكان ورجع إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود من التآمر على قتله.

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة وأحداثها:

أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: (أخرجوا من المدينة، ولا تساكنونني بها، وقد أجلتكم عشرا، فمن وجدته بعد ذلك بها ضربت عنقه).

لم يجد اليهود مناصا من الخروج، فأقاموا أياما يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول، أرسل إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم

قريظة وحلفاؤكم من غطفان. وفي ذلك نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ سورة الحشر: ١١.

هنا عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حُيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: (إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك).

لقد كان الموقف في تلك الفترة حرجا بالنسبة للمسلمين، حيث إن الاشتباك لم يكن مأمون العواقب، حيث تجرّأت القبائل العربية عليهم، وفتكهم الشنيع ببعوثهم، وجموع بني النضير كانوا على درجة من القوة، تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، والقتال معهم محفوف بالمكاره.

لكن الحال التي وصل إليها المسلمون هذه جعلتهم يقررون قتال بني النضير، خاصة بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ مهما تكن النتائج والعواقب.

حينما بلغ جواب حُييٌ بن أخطب النبي ﷺ كبَّر وكبَّر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، فلما وصل إليهم، فرض عليهم الحصار، ولجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونا لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ∴ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

والبويرة: اسم لنخيل بني النضير، وفي ذلك أنزل الله قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ سورة الحشر: ٥.

وفي ذلك الوقت الحرج اعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أُبّي بن سلول وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرا، وأو يدفع عنهم شرا، ولهذا شبه الله قصتهم بما ذكره في سورة الحشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الحشر: ١٦.

واستمر الحصار ستة ليالٍ، وقيل خمس عشرة ليلة، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، وتهيأوا للاستسلام وإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك والأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط، فحفظت لهم أموالهم.

قبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، وأرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفا، وكانت أموالهم

خاصة لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، ولم يُخمسها لأن الله ﷻ أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب.

فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة، وسهل بن نحيف، الأنصاريين ﷺ لفقرهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم جعل ما بقى في السلاح والكُراع عدة في سبيل الله.

لقد نزلت سورة الحشر بأكملها في تلك الغزوة، وهي تصف طرد اليهود، وفضح مسالك المنافقين، وبيان أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالالتزام بالتقوى، والاستعداد للآخرة، ثم ختم الله السورة بالثناء على نفسه، وبيان أسمائه العلى، وصفاته الحسنى.

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون، دون قتال وتضحية، توطن سلطان المسلمين، وأن يتفرغ النبي ﷺ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد، وتواثبوا على بعوث الدعاة، وحملة القرآن الكريم، يقتلونهم في نزالة وكفران.

❁❁❁

٤-دروس وعبرة من غزوة بني النضير:

١-شُهر عن اليهود صفات كثيرة، من بينها أنهم كانوا أصحاب دس ومؤامرات، وحقد وعداوة للإسلام والمسلمين، بسبب أن النبي ﷺ الخاتم جاء من خارجهم، رغم علمهم بصدقه، وصحة نبوته ورسالته، لكن العصبية والعنصرية أعمت أعينهم عن رؤية الحقيقة الواضحة، وحجبت قلوبهم عن قبول الحق

والهداية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الأنعام: ٣٣.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة النمل: ١٤.

فتفننوا في صفوف العداوة، ووقوع الأذى بالمسلمين، وتأليب الخصوم من القبائل العربية عليهم، وكانوا على صلة مستمرة بأخطر عدويين للمسلمين، المنافقين من الداخل، والمشركين من الخارج، وإثارتهم للنيل من الإسلام والمسلمين.

٢-كلما قوي المسلمون كانوا في عزة ومنعه وشوكة، وهيبة تخيف الأعداء الظاهرين وغيرهم، وكلما ضعف المسلمون ضاعت هيبتهم، وكانوا مطمعا من الجميع، يحاولون النيل منهم، أو القضاء عليهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ سورة البقرة: ٢١٧.

٣-التزام النبي ﷺ والصحابة ﷺ بالعهود والمواثيق المبرمة، سواء كانت لأفراد أو جماعات، فكان النبي ﷺ قد كتب كتابا للكلابيين بالعهد والأمان، ولما قتلا خطأ على يد مسلم، سعى النبي ﷺ في جمع الدية لهما، وكان من نصوص المعاهدة مع بني النضير، التعاون المالي في مثل هذه الظروف الصعبة، ولما خان يهود بني النضير

العهد، حذرهم النبي ﷺ من مغبة ذلك، قبل أن يبدأ في حصارهم، فأقام الحجة عليهم، قبل أن تنزل بهم العقوبة الصارمة.

٤-تآمر اليهود على قتل الأنبياء صفة قديمة متأصلة فيهم من قديم الزمان، فقد قتلوا عددا من الأنبياء بأيديهم، وتسببوا في قتل عدد آخر من أنبيائهم، وأوشوا ببعضهم عند الحكام ليقتلوهم، كما فعلوا مع زكريا، ويحيى وعيسى-عليهم السلام-وكذلك محاولتهم الفاشلة مع سيدنا محمد ﷺ والقرآن الكريم ذكر ذلك في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ سورة البقرة: ٨٧. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ سورة آل عمران: ٢١.

٥-حفظ الله ﷻ لنبيه ﷺ من القتل، ومما يكاد له في الظلام، فلقد نزل الوحي على النبي ﷺ يخبره بما يدبّره له اليهود من مؤامرة قتله، بإلقاء حجر الرحى عليه من فوق الدار، فالنبي ﷺ محفوظ بالرعاية الإلهية، ومكفول بحماية الله ﷻ أمام مكائد البشر، وكفى أن الله ﷻ عاصمه من مكائد الخصوم والأعداء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ سورة المائدة: ٦٧.

ولولا الوحي، وعصمة الله له لنبيه ﷺ ما نجى من هذه المكيدة المدبرة المحكمة.

٦-إقامة الحجة على الخصم قبل مفاجأته بالحرب والمعركة، فنرى أن النبي ﷺ أرسل محمد بن مسلمة إلى بني قريظة، ينذرهم بالخروج في خلال عشرة أيام،

وكذلك مع بني قينقاع، ومع خيبر، إرسال عليا يدعوهم إلى الإسلام، قبل أن يقاتلهم، فإقامة الحجة الواضحة على الخصم قبل مباغته، وهذا منهج نبوي إسلامي، طبقه النبي والصحابة ﷺ في حياتهم، والخلفاء الراشدون من بعد.

٧-الكفر كله ملة واحدة، والأعداء والخصوم يتحدون في معادتهم للإسلام، فبعدما أوشكت بنو النضير على الاستسلام، جاءتهم رسالة عبد الله بن أبي بن سلول بأنه سوف ينصرهم، ويدخل معهم هو ومن معه في حصونهم، ويأتي ببعض القبائل العربية معه، تراجع بنو النضير عن الاستسلام، وبعد الحصار المطبق عليهم، تخلى عنهم المنافقون والمشركون، وتركوهم يواجهون مصيرهم وحدهم.

وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد في صورة معبرة واضحة كاشفة في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الحشر: ١١.

وهم لا يقوون على المواجهة المباشرة لخوفهم وجبنهم، كما أنهم يجيدون الحرب عن بعد، ومن خلف ستار، ووراء حجر وجدر، وسدود وستائر، والقرآن الكريم قد كشف نفسيتهم في ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة الحشر: ١٣. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الحشر: ١٦.

٨-للمسلمين آداب ومبادئ وقيم في الحروب يلتزمون بها، ولا يخرجون عنها إلا للضرورة، بنص قرآني أو نبوي، مثل موقفهم من تقطيع نخيل بني النضير، فحينما أحتج اليهود على هذا الصنيع، نزل القرآن الكريم ليبين أنه أمر من الله ليخزى الفاسقين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ سورة الحشر: ٥.

لقد نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فنجوا بأنفسهم وذراريهم، وما تحمله الجمال من متاع غير السلاح، فكانوا يهدمون ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وإن هذه النهاية تعد عظة وعبرة، ودرسا لغيرهم إذا سلك مسلكهم، وسار على دربهم من الخيانة، ونقض العهد، وقد كان ذلك فيما بعد من بني قريظة وخيبر.

١٠-لقد فتح الله على المسلمين أبوابا من الرزق، فقد أفاء الله ﷻ على رسوله ﷺ من الأموال الكثيرة، ولم يُخمسها النبي ﷺ لأنها فيء، وليست غنيمة، فوضعها النبي ﷺ حيث أمره الله في القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ﴿٧﴾ ﴾ سورة الحشر: ٧. فكانت بابا من الخير، لسد حاجات الفقراء واليتامى، والمساكين وابن السبيل، ووضع السلاح والعتاد ليكون ذخيرة للجيش في معاركه القادمة، كما خص جانبا منها للمهاجرين لفقرهم وعوزهم، وخص رجلين من الأنصار لنفس العلة، وخص أهله بالنفقة عام، وتبقى سورة الحشر شاهدة على الأحداث، حتى لا ينساها المسلمون. ❁❁❁

(١٤) غزوة الأحزاب دروس وعبر.

١. أسباب الغزوة.

٢. خط سير الغزوة وأحداثها.

٣. دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

١- أسباب الغزوة:

كانت الغزوة في شوال وذي القعدة، سنة خمس من الهجرة، حاصر المشركون المدينة قريبا من شهر.

كان اليهود بعد غزوة بني النضير قد ذاقوا ألوانا من الذل والهوان، بعد غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم، حيث تمَّ نفيهم إلى خيبر، أخذوا ينظرون ماذا سيحل بالمسلمين، فإذا بهم يزدادون قوة على قوتهم، فشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، فأخذوا يعدون العدة ليواجهوا للمسلمين ضربة قوية قاتلة، فوضعوا لهذه الأمر خطة رهيبة.

خرج عشرون من زعماء بني النضير إلى قريش، يحرضون على غزو المسلمين بالمدينة، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم بالمال والنفس، فأجابتهم قريش بعدما أخلفت موعدها بالخروج لبدر، بعد غزوة أحد، ورأت في ذلك إنقاذًا لسمعتها.

ثم خرج نفس الوفد السابق إلى غطفان، فألبوهم على المسلمين مثلما فعلوا مع قريش، فاستجابوا لهم، ثم طافوا على قبائل العرب، ويخبر ساستهم في تأليب قبائل العرب على المسلمين.

خرجت مكة والأحابيش في أربعة آلاف، وغطفان وما حولها في ستة آلاف، حتى وصلوا إلى المدينة في جيش كبير، يبلغ عشرة آلاف مقاتل، لو فاجئوا المدينة بهذا الجيش لقضوا على المسلمين أجمعين.

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة وأحداثها:

كانت القيادة النبوية في غاية اليقظة، حيث نقلت الاستخبارات خبر الجميع إلى الرسول ﷺ فعقد مجلسًا استشاريًا أعلى، وبعد مناقشات استقر الرأي على ما اقترحه سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: (إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا). وكانت خطة حكيمة لم تعرفها العرب من قبل، وسارع النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم إلى التنفيذ، فاستند إلى كل عشرة أربعين ذراع، وقام المسلمون بجد ونشاط في الحفر، ونقل التراب على أكتافهم، وهم يرددون خلف الرسول ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ∴ فاغفر للأنصار والمهاجرة.

وكان يجيبونه: نحن الذين بايعوا محمدًا ∴ على الجهاد ما حينا أبدًا.

كما كان النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم يرتجزون بكلمات ابن رواحة:

اللهم لولا أنت ما هتدينا ∴ ولا تصدقنا ولا صلينا

كان المسلمون يعملون بجد ونشاط، وهم يقاسون شدة الجوع والبرد، ويربطون الحجارة على بطونهم من شدة الجوع.

ووقعت في هذه الغزوة عدة معجزات من دلائل النبوة، منها قصة جابر بن عبد الله ﷺ حيث طبخت امرأته ﷺ صاعا من شعير، وذبح بهيمة، والتمس الرسول ﷺ سرا مع نفر من الصحابة ﷺ فقام النبي ﷺ بجمع أهل الخندق وهم ألف، فأكلوا من هذا الطعام وشبعوا، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هي، وبقى العجين يُخبر كما هو.

وجاءت أخت النعمان بن بشير ﷺ بحفنة من تمر ليتغذى بها أبوه وخاله، فمرت بالرسول ﷺ فطلب منها التمر، وبدره فوق ثوب، ودعا أهل الخندق، فجعلوا يأكلون والتمر يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، والتمر يسقط من أطراف الثوب.

وعَرضت كدية شديدة للصحابة ﷺ فأخبروا النبي ﷺ فأخذ المعول وضرب، فعاد كثيبا أهيل، أي رملا لا يتماسك.

وفي رواية قال: (بسم الله والله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الآن، ثم ضرب الثالثة فقال: بسم الله الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني).

وكان الخندق جهة الشمال، فكان المسلمون يحفرون طوال النهار، ويرجعون إلى أهليهم في المساء، حتى اكتمل الخندق قبل وصول جيوش المشركين إلى المدينة، قَالَ

تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ٢٢.

أما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم، لرؤية جيوش المشركين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١٢.

وخرج النبي ﷺ في ثلاثة آلف مقاتل، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار، وكان شعارهم: (حم لا ينصرون).

استخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الحصون.

فوجئ المشركون بالخندق، فحال بينهم وبين دخول المدينة، ولجاوا إلى الحصار، وهم يدورون حول الخندق، يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها، بينما المسلمون كانوا يرشقونهم بالنبل، فلا يجترئوا على الاقتراب منه.

خرجت جماعة من المشركين فيهم عمرو بن ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، فبحثوا عن مكان ضيق من الخندق فاقتحموه، وتصدى لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع نفر من المسلمين، ودعا عمرو للمبارزة، فتقدم له علي رضي الله عنه فقال كلمة حمَّى لأجلها عمرو، فعقر فرسه، وأقبل على علي فتجاولا وتصاولا، حتى قتله علي، وفرَّ الباقون منهزمين.

ثم حاول المشركون محاولة بليغة فيما بعد في اقتحام الخندق، لكن المسلمين رشقوهم بالنبل، وناضلوهم أشد النضال، حتى فشلت محاولتهم.

وبسبب هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن الرسول ﷺ والصحابة ﷺ فجعل عمر يسب كفار قريش، فقال يا رسول الله ﷺ ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبي ﷺ وأنا والله ما صليتها، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب، ودعا عليهم الرسول ﷺ فقال: (ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى).

وهذه المناوشات أخذت أياما، إلا أن الخندق كان حائلا بين الجيشين فلم يجر بينهما قتال مباشر، بل اقتصر على المراماة والمناضلة.

واستشهد من المسلمين ستة، وقتل من المشركين عشرة، ورُمي سعد بن معاذ ﷺ بسهم فقطع منه الأكحل – عرق في الذراع يفصد – فدعا سعد فقال: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقى عن حرب قريش شيئا فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها، واجعل موتي فيها، وقال في آخر دعائه، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة).

وفي وسط هذه الشدائد، انطلق كبير مجرمي بني النضير، حُيي بن أخطب، إلى ديار بني قريظة، فقابل سيدهم، كعب بن أسد القرظي، وكان بينه وبين الرسول ﷺ

معاهدة، أن ينصره إذا أصابته حرب، فألح عليه حُيّ في نقض العهد، وأنه جاء بقريش وغطفان؛ ليستأصلوا محمدا ﷺ ومن معه من أهل المدينة.

فما زال يخادعه حتى أعطاه عهدا وميثاقا، فنقض العهد الذي كان بينه وبين المسلمين، شريطة إذا رجعت قريش وغطفان أن يدخل مع حُيِي في حصنه فوافق، ودخل مع المشركين في محاربة ضد المسلمين.

وقامت بنو قريظة بعمليات الحرب، فجاء رجل من اليهود يطوف بحصن (فارع) وفيه النساء والأطفال وكبار السن، فطلبت السيدة صفية ﵂ عمة الرسول ﷺ من حسان بن ثابت ﵁ أن يذهب ويقتله، فقال لست بصاحب هذا، فاحتجزت وأخذت عمودا من الحصن، ونزلت إليه فضربته حتى قتلته، ثم عادت إلى الحصن، وقالت لحسان: انزل إليه فاسلبه، فإنه لا يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال ما لي بسلبه من حاجة.

فترك قتل اليهودي على اليهود أثرا عظيما، حيث ظنوا أن الحصون في منعة من الجيش الإسلامي، فلم يجترؤوا على القيام بمثل هذا العمل مرة ثانية، لكنهم كانوا يمدون المشركين بالمؤن، وقد أخذ المسلمون من المؤن عشرين جملا.

لما وصل خبر نقض بني قريظة العهد للرسول ﷺ بعث ليتأكد من الخبر السعدين، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير ﵃ وقال: (انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان

حقا، فألحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفُّتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به الناس).

فلما دنوا منهم وجدوهم قد نقضوا العهد، وجاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من الرسول ﷺ فلما عادوا لحنوا للرسول ﷺ وقالوا: (عَضْل وقارة) أي أنهم على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع، وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم الإشارة، فتفطنوا لخطورة الأمر، وشعروا بالخوف، كما صور القرآن الكريم الصورة تمما في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١٠.

جهر بعض المنافقين بما في صدورهم، فقالوا: (كان محمد ﷺ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط).

وقال بعضهم ما حكاه القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١٣.

وهمت بنو سلمة، وبنو حارثة بالفشل، ونزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ سورة آل عمران: ١٢٢.

أما الرسول ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر بني قريظة، فاضطجع ومكث طويلا حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشرا الصحابة ﷺ بقوله: (أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره).

ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، فبعث الحرس ليلا للمدينة، واقترح أن يصالح غطفان ومن معها على أن يرجعوا ولهم ثلث ثمار المدينة، فاستشار السعدين في ذلك فقالا: (لا يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة، وإن كان شيئا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، والله لا نعطيهم إلا السيف) فصوب رأيهما وقال: (إنما هو شيء أصنعه لكم، لَمَّا رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة).

ومن تدبير الله للمسلمين إسلام نعيم بن مسعود الغطفاني، دون أن يعلم قومه بذلك، فقال له النبي ﷺ: (إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة).

فأحدث وقيعة بين اليهود والمشركين وغطفان، بأن يأخذ اليهود منهم رهائن حتى تنتهي المعركة، فصنعت الحيلة أثرها، ودبت الفرقة والخلاف بين صفوفهم، وخارت عزائمهم، ودعا عليهم الرسول ﷺ فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم).

واستجاب الله لدعاء رسوله ﷺ فأرسل عليهم جندا من الريح، جعلت تقوض خيامهم، وتكفئ قدورهم، وقذف الله في قلوبهم الخوف والرعب.

أرسل النبي ﷺ في تلك الليلة الباردة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى الرسول ﷺ وأخبره بحالهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ٢٥.

فصدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وكم لله من جنود لا يعلمها إلا هو، وكذلك النصر يأتي بعد الشدة والضيق، ويأتي فجأه حيثما يريد الله.

❁❁❁

٣-الدروس والعبر المستفادة من غزوة الأحزاب:

١-تعد هذه الغزوة من أشد المعارك التي خاضها المسلمون، رغم قلة عدد الشهداء، حيث كانوا ستة فقط، فهم أقل من بدر وأحد، وذلك لأنها كانت معركة أعصاب، وحصار طويل، استغرقت قرابة شهر، والمسلمون في حالة استنفار بالليل والنهار، مع قلة الطعام، والبرد الشديد، والخوف والرعب الذي جعل الصحابة رضي الله عنهم لا يأمنون على قضاء حوائجهم.

٢-كانت غزوة الأحزاب من المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام، حيث نصر الله المسلمين نصرا قويا مؤزرًا بجنود من عنده، وقذف الرعب في قلوب المشركين، وأرسل عليهم الريح التي أجبرتهم على الرحيل، فعلم العرب أنه لن تستطيع أي قوة أن تستأصل الإسلام والمسلمين، حيث لا يستطيعون أن يجيشوا جيشا أكبر من

ذلك، وقال النبي ﷺ بعد رحيل المشركين: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم).

٣-لقد أكرم الله المؤمنين بعدة معجزات في هذه الظروف العصيبة، التي خففت من صعوبات الجوع والحفر، والاجهاد والتعب، فكانت معجزة تكثير الطعام، التي وقعت في بيت جابر بن عبد الله ﷺ وتكثير التمر الذي أتت به أخت النعمان بين بشير ﷺ فكفىّ الجيش كله، ومعجزة بشارات النبي ﷺ بفتح فارس والشام واليمن، وهو يضرب بمعوله هذه الكدية من الحجارة، التي وقفت في طريقهم أثناء حفر الخندق.

فكانت هذه المعجزات من دلائل النبوة الصادقة، وزيادة إيمان الصحابة ﷺ بعظمة هذه الدين والرسالة، التي يحملونها لهداية الناس، وتثبيتا لقلوبهم في الظروف التي عاشوها من شدة البرد والخوف والجوع.

٤-كشفت الغزوة عن العبقرية النبوية في حماية المدينة، من خلال جهاز الاستخبارات المستيقظ في كل مكان، فوصله الخبر مبكرا، فوضع الخطة المناسبة بعدما شاوره الصحابة ﷺ وأعجب برأي سلمان الفارسي ﷺ في حفر الخنق فقام بتوزيع المهام، حتى تم العمل وهو يشاركهم فيه في وقت قياسي، رغم قلة الإمكانيات، وصعوبة العمل، فتم الانتهاء منه قبل وصول الأحزاب إلى حدود المدينة، فحال الخندق بين دخولهم المدينة وتحقيق أهدافهم.

كذلك استفاد النبيِّ ﷺ من رأى السعدين، في مشاورتهم بثلث ثمار المدينة لغطفان، ويعودوا إلى قراهم، فكشف هذا الرأي عن تماسك الجبهة الداخلية، وأنهم لا يقبلون الضيم، وليس لهم حل سوى السيف فقط، وأما التمر فإما قرى أو شراء، خاصة بعدما أعزهم الله بالإسلام، وأكرمهم بأن يكونوا أنصارا لرسوله ﷺ.

٥-استغل النبي ﷺ فرصة إسلام نعيم بن مسعود ﷺ دون أن يعلم بذلك قومه، فقام بالوقيعة بين المشركين واليهود، ونجحت حيلته في وقوع الفرقة والشقاق والخلاف بين المتحالفين، فاتهم كل واحد منهم الآخر في نواياه، مما جعلهم ينفضون بعضهم عن بعض، والحرب خدعة، والعبرة بالنهايات.

٦-التثبت من الأخبار في الظروف الصعبة، فعندما وصل خبر نقض قريظة إلى الرسول ﷺ أرسل السعدين ليستوثقوا من الخبر؛ لما يترتب عليه من قرار، وكشف الخبر عن أن اليهود لا عهد لهم ولا ميثاق، طوال تاريخهم الطويل، وقد سبق بني قريظة في ذلك من قبل، بنو قينقاع، وبنو النضير، ولم يعتبروا بنهايتهم كما ذكر القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ سورة الحشر: ٢.

ولم يعتبر بنو قريظة بمن سبقهم؛ لذلك كانت عقوبتهم أشد من سابقيهم.

٧-لعب المنافقون دورا كبيرا في هذه الغزوة، في تثبيط همم المسلمين وعزائمهم، ووقوفهم مع حلفائهم من اليهود، ومساندة المشركين، ولكن مؤامراتهم باءت بالفشل، أمام قوة صف المسلمين ووحدته، وتماسكهم كالبنيان المرصوص، قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١٢.

وقد فضحهم القرآن الكريم فضيحة منكرة، وبين زيف كلامهم، وحججهم الواهية، حتى إنهم أصبحوا يستترون بعد هذه المعركة الكاشفة.

٨-صانع النصر الحقيقي لهذه المعركة وجميع انتصارات المسلمين قديما وحديثا إنما هو الله ﷻ وحده، فهو الذي ردَّ المشركين بغيظهم لم ينالوا خيرا، وهو الذي حمى المسلمين من سيوف المشركين، وهو الذي كفى المؤمنين شر القتال، وهو الذي أيد المسلمين بالريح والملائكة، وهو الذي سلط النبي ﷺ والصحابة ﷺ على بني قريظة، بعد جلاء الأحزاب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ٢٥ – ٢٧.

❁❁❁

(١٥) غزوة بنى قريظة دروس وعبر.

١-تاريخ الغزوة.

٢- أسباب الغزوة.

٣-أحداث الغزوة.

٤-أهم الدروس المستفادة من الغزوة.

❁❁❁

يقول الحق ﷻ في محكم آياته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾سورة إبراهيم الآية (٢٨).

أتدرون من أولئك القوم الذين جروا الذل والعار والخراب والدمار، على أنفسهم وأهليهم في الدنيا والآخرة؟.

إنهم ثلة من اليهود في عصر النبوة، الذين خانوا العهود، واتبعوا أمر كل شيطان مريد، فأنزل الله بهم العذاب الأليم في الدنيا، قبل أن يخلدوا فيه يوم القيامة، وهذه نتيجة لأعمال إجرامية قاموا بها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ سورة آل عمران الآية (١٨٢). إنهم يهود بنى قريظة الذين قال الله فيهم: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾سورة الأحزاب الآية (٢٦-٢٧).

لقد نزلت هذه الآيات في يهود بنى قريظة، حينما كشفوا عما في طويتهم من حقد دفين، ومرض مكين، استولى على نفوسهم وقلوبهم، فأعلنوا غدرهم بالنبى ﷺ في اللحظات الحرجة التى تتعرض فيها المدينة من الخارج للرياح العاتية، فأعلنوها حربا شعواء من الداخل أيضا ليطبقوا على دولة الإسلام في مهدها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾سورة الأحزاب الآية (١٠).

إن موقف يهود الأمس من بنى قريظة مثل موقف يهود اليوم الذين جاءوا من شتات الأرض، واحتلوا أرض فلسطين وكأنها أرض بغير شعب لتستقبل شعبا بغير أرض. لقد نقضوا اليوم ما اتفقوا عليه بالأمس، وينقضون غدا ما أبرموه اليوم وأصبح نقض اليهود صفة لازمة لهم لا تنفك عنهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾سورة البقرة الآية (١٠٠).

إن التاريخ يعيد نفسه، فكما أنهم وقفوا مع قريش وغطفان للقضاء على دولة الإسلام، فهم الذين وقفوا خلف سقوط دولة الخلافة الإسلامية، وذبحوا الآلاف من المسلمين في صمت وهم يحتلون أرض فلسطين.

❁❁❁

١-تاريخ الغزوة:

وقعت أحداث غزوة بنى قريظة، في ذى القعدة، في السنة الخامسة، من الهجرة النبوية المباركة، عقب غزوة الأحزاب مباشرة، وكانت حرب أعصاب، قذف الله في

قلوب اليهود الرعب وانهارت معنوياتهم أمام كتيبة الإيمان، فأسلموا أنفسهم لدولة الإسلام دون قيد أو شرط.

❁❁❁

٢-أسباب الغزوة:

لما تم إجلاء بنى النضير من المدينة بسبب خيانتهم وتآمرهم على قتل النبى ﷺ وأكل الحقد والحسد قلوبهم فانطمست بصائرهم عن رؤية الحق والهدى والنور فانطلق عدد من رؤسائهم إلى مكة يحرضون قريشا وغطفان على قتال المسلمين في المدينة من خارجها، ويباغت بنو قريظة المسلمين من داخل المدينة، وبذلك تكون النهاية الحتمية المؤكدة للمسلمين، وكانت غزوة الأحزاب وأحداثها وعادت الأحزاب مولية الأدبار تحمل معها الفشل والهزيمة والخسران، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّٗا عَزِيزٗا ٢٥﴾ سورة الأحزاب الآية (٢٥).

وبقى بنو قريظة داخل المدينة وحدهم، يتحملون نتيجة الغدر والخيانة، فأمسوا كالمجرم الذى ثبتت إدانته ويعيش مهموما قلقا مضطربا في انتظار القصاص العادل. فكان التدبير الإلهى من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يؤدب هؤلاء الغادرين، ويقلع جذورهم من المدينة ليطهرها من مكرهم وشرورهم، وحتى لا يكرروا جريمتهم مرة ثانية مع المسلمين، وليكونوا عبرة لمن ورائهم من باقى اليهود في خيبر.

روى الإمام البخارى بسنده عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ **"لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عصب رأسه الغبار، فقال وضعت**

السلاح؟!! فوالله ما وضعته. قال فأين؟ قال ها هنا وأومأ إلى بنى قريظة، قالت: فخرج رسول الله ﷺ وأمر ﷺ من ينادى في الناس بأن لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة" الحديث أخرجه الإمام البخاري. وذكره ابن حجر فى الفتح ٤٧٣/٧ عن عائشة رضي الله عنها.

❁❁❁

٣-أحداث الغزوة:

خرج المسلمون بعدما سمعوا النداء متوجهين إلى بنى قريظة فأدركتهم صلاة العصر في الطريق، فاجتهدوا في فهم قول النبى ﷺ فصلى بعضهم العصر في الطريق وقالوا إنما أراد السرعة، وأخر البعض الصلاة حتى وصلوا إلى بنى قريظة ليلتزموا بما قاله الرسول ﷺ وأعلموه بما تم فلم يخطئ أحدا منهم.

أعطى النبى ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب ﷺ واجتمع حوله ثلاثة آلاف من المسلمين المجاهدين من كتائب الإيمان والتوحيد، ومعه ستة وثلاثون فارسا ولما دنا من حصن بنى قريظة سمع منهم مقالة قبيحة في حق النبى ﷺ فأراد على أن يؤخر النبى ﷺ حتى لا يسمع ومنهم هذا الأذى، فأجابه النبى ﷺ بأنه إذا رأوه لم يقولوا شيئا، لما يعلم من أخلاقهم في النفاق والتملق فتلطفوا معه ﷺ.

وحاصر المسلمون بنى قريظة، خمسا وعشرين ليلة، ولما ضاق بهم الحصار، خيّرهم رئيسهم كعب بن أسد بين حلول ثلاثة فرفضوها وهى الإسلام، أو الحرب، أو مباغتتهم في يوم السبت، فقال لهم معاتبا منذ أن خلقكم الله وأنتم لم تجمعوا أمركم على شئ.

واستقدموا أبا لبابة بن المنذر يستشيرونه في أمرهم، أينزلون على حكم محمد ﷺ فقال لهم نعم، وأشار إلى حلقة ينبههم إلى ما ينتظرهم من الذبح، وأحس لفوره أنه خان الله ورسوله، فربط نفسه إلى سارية المسجد إلى أن يتوب الله عليه.

ولما عقد على بن أبى طالب مع الزبير بن العوام العزيمة على مهاجمة الحصون المغلقة ليفتحها عنوة أو ليلاقين ما لقى حمزة بن أبى طالب، وافق بنو قريظة على أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ الذى كان حليفا لهم قبل الإسلام ليكون قاضيا فيهم.

وحكم سعد بن معاذ أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، وأقر النبى القضاء الحازم الذى قضى به سعد بن معاذ قائلا له: **"لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات"**.

وحُفرت الخنادق والأخاديد، وسبق مقاتلوتهم إلى القتل، ليذوقوا وبال أمرهم من الخيانة والغدر وانطوت صفحة سوداء من تاريخ بنى قريظة يتذاكرها المسلمون المعاصرون كلما قرأوا سورة الأحزاب ليلتمسوا منها درسا لحاضرهم وعبرة لمستقبلهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الأحزاب الآية (٢٦-٢٧).

❁❁❁

٤-أهم الدروس المستفادة من الغزوة.

١- أدب الاختلاف، وفقه الأولويات:

حينما صدع مؤذن النبى ﷺ قائلا: **"من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر- إلا في بنى قريظة"**.

لقد غربت الشمس قبل أن يصلى المسلمون إلى بنى قريظة، فقالت طائفة من المسلمين (إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا، وقالت طائفة إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ وما علينا من إثم، فصلت طائفة إيمانا واحتسابا، وتركت طائفة إيمانا واحتسابا، ولم يعنف رسول الله ﷺ واحدا من الفريقين) الحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وأخرجه الحاكم ٣/٣٤،٣٥ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وقال الحافظ رجاله ثقات، عن علقمة بن أبى وقاص ﷺ.

نلحظ هنا اختلاف وجهات النظر في فهم النص النبوى الشريف والإسلام يحترم الاختلاف في الفهم ما دام صادرا عن اجتهاد لا عن هوى شخصى.

لقد وقف بعض الصحابة عند حدود النص الظاهر لا يتعداه فلم يصل في الطريق، وبعضهم نظر إلى المقصد والحكمة من وراء النص وهو السرعة فصلى في الطريق وخالف ظاهر النص.

يقول الشيخ محمد الغزالى -رحمه الله-: (وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه، سواء أصاب الحق أن ند عنه؟ ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال، وذلك مذهب البخارى وغيره وهذا - عندى- أدنى إلى الصواب، فإن ترتب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يجدد رسالة المسلم في الحياة، بل إنه لا يفهم دينه فهمها صحيحا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب.

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى، فيها الفرائض وفيها النوافل ولابد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فالرجل الذى يستكثر من أعمال التطوع الذى يهمل فيه فرائض لازمة رجل ضال، والفرائض مطلوبة لحفظ الإيمان،

كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم، وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها، أو البروتنية وحدها، فلابد من استكمال جمل منوعة من الغذاء، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله فكذلك الدين إنه لا قيام له في كيان الفرد أو صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض المنوعة، تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه، وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة فلا يشغله واجب عن واجب، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب.

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم، ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة، فلا ينبغى أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة - فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضروريات القتال) فقه السيرة الشيخ/ محمد الغزالي صـ٣٣٢-٣٣٣.

٢- دروس رائعة من مواقف الصحابة:

أما أبو لبابة بن المنذر حينما استقدمه اليهود للمشاركة في نزولهم على حكم محمد ﷺ وأشار بيده إلى حلقه أحس من لحظتها أنه خان الله ورسوله ﷺ فماذا يصنع وقد تربى على الصدق مع النفس، مضى هائما على وجهه لا يدرى أى أرض تقله، وأى سماء تظله فقصد مسجد النبى ﷺ وربط نفسه على سارية من سواريه، وأقسم أن لا يفك منها حتى يتوب الله عليه، وظل هكذا ستة أيام لا يفك إلا للطعام أو الصلاة ثم يربط مرة ثانية.

لقد باح بسر-ولو بالإشارة- يتعلق بنهاية معركة لها ما بعدها، فاستشعر عظمة جرمه، فعاقب نفسه قبل أن يعاقبه المجتمع أو القائد، ولصدقه في التوبة تاب الله

عليه، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ سورة التوبة الآية (١٠٢).

إننا لا نجد مثل هذه الصورة المشرقة في نظم أرضية أو قوانين بشرية وإنما نجدها في ظل إخوة الدين وتحت راية الإسلام فما أجمله من دين، وما أعظمه من منهج يسير حركة الحياة.

وأما سعد بن معاذ فقد كان حليف بنى قريظة في الجاهلية، وظن اليهود أن هذه الصلة تنفعهم وتحول نهايتهم إلى سلم وأمان، لقد قابله قومه يقولون له أحسن في مواليك وواجهه النساء والأطفال من بنى قريظة يبكون، لكن الرجال العظام لا يضعفون أمام العواطف، خاصة في المواقف الحاسمة التى تتعرض بمصير الأمة وأمنها، جاء سعد من الخيمة التى يمرض فيها على حمار إثر جرح أصابه من سهام الأحزاب وهو يستعرض في عقله الموقف الحرج الذى تعرضت له المدينة من نقض بنى قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ ولم ينس سعد الألفاظ البذيئة التى تعرض لها من بنى قريظة حينما ذهب يناشدهم الوفاء وهم يقولون له (أكلت أير أبيك).

هنا صاح سعد بن معاذ في قومه وقد أكثروا عليه الرجاء، قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم وحكم: (أن يقتل الرجال، ويسبى الذرية، وتقسم الأموال).

وأقر النبى ﷺ هذا القضاء الحاسم وأثنى عليه فقال **"قَضَيْتَ بحُكْمِ اللهِ، وَرُبَّما قالَ: قَضَيْتَ بحُكْمِ المَلِكِ"** الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٧٦٨) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

وكان سعد بن معاذ هناك في غاية العدل والانصاف في هذا الحكم العادل، جزاء ما قدمت أيديهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ سورة المائدة الآية (٣٨).

ولما عاد سعد انتفضت جراحته فسال منه الدم، ومات بسببها وقال فيه ﷺ: **"اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ"** الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٨٠٣) عن جابر بن عبد الله ﷺ.ولما حملت جنازته، قال المنافقون ما أخف جنازته فقال ﷺ **"إن الملائكة كانت تحمله"** الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٣٨٤٩) حسن صحيح غريب، عن أنس بن مالك ﷺ.

فما أعظم هؤلاء الرجال الذين جهروا بكلمة الحق دون أن تأخذهم في الله لومة لائم وضحوا بأنفسهم من أجل رفع راية التوحيد، ونصرة الدين مع خاتم النبيين ﷺ.

٣- الغدر من صفات اليهود إلى قيام الساعة:

لقد خان اليهود في عصر النبى ﷺ عهودهم معه لما تبين لهم أن المسلمين أحيط بهم من كل جانب، وأن نهايتهم قد اقتربت ولما ذكرهم سعد بن معاذ قالوا لا عهد بيننا وبين محمد ﷺ.

لقد دمغهم القرآن بنقض العهود في آيات كثيرة ليتذكر أولوا الألباب، فلا يعلقوا عليهم الآمال أو يحسنوا بهم الظنون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة البقرة الآية (٢٧).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة البقرة الآية (١٠٠).

أفبعد تاريخهم الطويل من الخيانة والغدر تثق أمتنا في عهودهم وميثاقهم وقد خانوا عهد الله وميثاقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة التوبة الآيات (٨-١٠).

إن كلمة المواثيق والعهود هى آخر شئ في الحياة يقف عندها اليهود، في تاريخهم القديم أوالحديث.

لقد تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة، وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة، فضربت أعناقهم مع من كان معهم من أكابر مجرمى الحرب أمثال حيي بن أخطب الذى سبق إلى القتل وقد مزق ثيابه لئلا ينتفع بها المسلمون وأوثق المسلمون، يديه إلى عنقه فتوجه إلى النبى ﷺ قائلا:

(أما والله ما لمت نفسى في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب، ثم قال أيها الناس لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه).

وأسلم بعض من بنى قريظة قيل، أسلموا قبل فتح الحصون فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم، وقسم النبى ﷺ أموال بنى قريظة على المجاهدين، وغنم المسلمون ألفا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وجفنة.

وأنزل الله في تلك الغزوة قرآنا يتلى إلى يوم القيامة؛ ليتدارس المسلمون تلك الغزوة وأحداثها في كل وقت وحين، ويأخذوا درسا ينفعهم على مر الأيام والسنين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الأحزاب الآيتان (٢٦-٢٧).

كما أن الله شرح لنا طبيعة اليهود ونفسياتهم إلى قيام الساعة؛ حتى يكون المسلمون على وعي وبصيرة في التعامل معهم؛ فلا يقعوا في أخطاء سابقة؛ ولا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، وإنما يستفيدون من أحداث الماضي، في صناعة الحاضر والمستقبل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الحشر الآيات (١١-١٤). **نسأل الله أن يحفظنا من مكر الأعداء ومن كل مكروه وسوء.**

وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن. ❁❁❁

(١٦) غزوة بنى المصطلق دروس وعبر.

مقدمة.

١-تاريخ الغزوة وأهميتها.

٢- أسباب الغزوة.

٣-أحداث الغزوة.

٤- أثر المنافقين فى الغزوة.

٥- حديث الإفك.

٦- أهم الدروس والعبر المستفادة من الغزوة، وحادثة الإفك.

❁❁❁

مقدمة:

إن سيرة سيدنا محمد ﷺ تتسم بعدة مزايا ليست لغيرها من سير الأنبياء والمرسلين السابقين، أو القادة والمصلحين، فهى أصح سيرة فكل أحداثها صحيحة لأنها وردت إلينا عن طريق أصح الكتب، وأوضح سيرة فكل جزئية فيها تتعلق بشخصه ﷺ واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، بل هى أوضح من الشمس في ضحاها، وأبين من القمر إذا تلاها، وأضوأ من النهار إذا جلاها.

وتحكى لنا سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم يرفعه أتباعه إلى درجة الألوهية، أو البنوة لله، وإنما هو عبد الله ورسوله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة الكهف الآية (١١٠).

كما أننا نجد في سيرته القدوة العملية لنا في كل شئون حياتنا، نجد فيه القدوة كمعلم يعلم أصحابه من جهاله، ومربى يصحح أخطاء المخالفين، دون أن يعنفهم، أو ينال من كرامتهم، وأب حان على أبنائه، يسعهم بطلاقة وجهه، وحسن منطقه، وقوة عاطفته، وزوج كريم يعامل زوجاته أحسن معاملة، فيأسرهم ببره وإحسانه، وقائد عسكرى يشاور جنوده في معاركه وغزواته، وينزل على رأيهم إذا كان صوابا، وإنسان كريم يعامل الخدم والحشم معاملة طيبة، بل شملت إنسانيته الحيوانات العجماوات، التى لا تنطق ولا تتكلم.

ونركز اليوم على درس من دروس السيرة العطرة، لأن دراستها عبادة يتعبد بها المسلم إلى الله ﷻ يقول أحد أصحاب نبينا ﷺ: (كنا نعلم أولادنا سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه كما نعلمهم السورة من القرآن) فكما أنت تحفظ ولدك شيئا من القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ ينبغى أيضا أن تعلم ولدك سيرة النبى ﷺ.

ذلك لأن أغلب الشباب اليوم يعرف عن أعلام الممثلين والممثلات أكثر مما يعرفه عن سيرة النبى والصحابة، ورواد المسارح منهم أكثر من رواد المساجد، وحفظة الأغانى أكثر من حفظة القرآن الكريم، فلتكن من خطوات الإصلاح العودة إلى الأصيل الذى غاب عن حياة الناس، فعاشوا في حيرة واضطراب، والأصيل هى دراسة السيرة والغزوات لنستلهم منها الدروس والعبر التى نصلح بها الحاضر والمستقبل. ❁❁❁

١- تاريخ الغزوة وأهميتها:

ولقد وقعت أحداث غزوة بنى المصطلق في شعبان في السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة، وتتميز هذه الغزوة بأن وقع في توابعها أحداث جسام هزت المجتمع الإسلامى، وزلزلت أركانه، وتمخضت عن تشريعات إلهية أعطت المجتمع الإسلامى صورة عظيمة عن طهارة النفوس، وعقوبة المخالفين، وافتضاح المنافقين.

❁❁❁

٢- أسباب الغزوة:

ترامت الأخبار إلى سمع النبى ﷺ بأن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار خرج بقومه مع بعض قبائل العرب يريد حرب النبى ﷺ وأصحابه، فأرسل النبى ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمى ليتحقق من الخبر فوجده صحيحا، فندب النبى ﷺ الصحابة وتجهزوا للخروج في الثالث من شعبان سنة ست من الهجرة، وخرج مع النبى ﷺ جماعة المنافقين لم يخرجوا معه من قبل.

واستعمل النبى ﷺ على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أباذر، وأرسل الحارث عينا من قبله ليأتيه بأخبار المسلمين، فألقى المسلمون القبض عليه وقتلوه.

ولما بلغ الحارث خبر تحرك الجيش الإسلامى، وقتل من أرسله ليأتيه بالأخبار خاف الجيش، وتفرق أغلب من كان معه، ووصل النبى ﷺ إلى المريسيع وهو اسم لماء من مياههم فعسكر فيه.

❁❁❁

٣-أحداث الغزوة.

صف النبى ﷺ الصحابة، وأعطى راية المهاجرين أبا بكر الصديق، والأنصار سعد بن عبادة، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر الرسولﷺ أصحابه فحملوا حملة رجل واحد، فكان النصر المؤزر من الله ﷻ وانهزم المشركون شرّ هزيمة، وقتل منهم من قتل، وسبى النبى ﷺ الذرارى والنساء والنعم، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد قتل على سبيل الخطأ، قتله رجل من الأنصار، ظنا منه أنه من الأعداء إذ أنه لم يكن يعرفه، والإمام ابن القيم يرجح أنه لم يكن هناك قتال، وإنما غار النبى ﷺ عليهم وهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم، وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد القوم، ووقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فأدى عنها الرسولﷺ وتزوجها، وأعتق المسلمون بسبب هذا الزواج مائة من أهل بنى المصطلق قد أسلموا وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ.

❁❁❁

٤- أثر المنافقين في الغزوة.

بعد الهجرة مباشرة كون عبد الله بن أبى بن سلول جماعة من المنافقين يضمرون العداوة والبغضاء للنبى والصحابة وهم يتحملونهم في حلم وصبر جميل.

وخرج المنافقون في هذه الغزوة ليضعوا خلالهم الفتنة، وينشروا الشائعات التى تهز المجتمع المسلم وتنال منه.

وبعد انتهاء الغزوة ازدحم الناس عند الماء، ومن بينهم أجير لعمر بن الخطاب يقال له جهجاه الغفارى، ازدحم مع وسنان بن وبر الجهنى فاقتتلا فقال الجهنى يا

معشر الأنصار، وقال جهجاه يا معشر المهاجرين فسمع النبى ﷺ ذلك فقال أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة.

ووصل الخبر إلى ابن سلول فغضب، وكان ذلك في وجود رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، فقال ابن سلول: أوقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل...

فأخبر زيد عمه، فأخبر الرسول ﷺ وعنده عمر فقال عمر: مر عباد بن بشر فليقتله، فقال كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه لا ثم أذن النبى بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، ولقى أسيد بن حضير النبى ﷺ فحياه، وقال لقد رحلت في ساعة منكرة؟ فقال له أوما بلغك ما قاله صاحبك؟ وأخبره النبى ﷺ فقال أنت يا رسول الله تخرجن منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز.

ومشى الناس يومهم وليلتهم وصدر اليوم التالى حتى أجهدوا (فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث) فما إن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما، وأنكر ابن أبى مقولته، وتزلت سورة المنافقون لتفضحهم.

وفعل ابن عبد الله بن أبى بن سلول موقفا حميدا فمنع أباه من دخول المدينة حتى يعترف بأنه الذليل والرسول ﷺ هو العزيز، ولو أمر النبى بقتله لكان ولده أسبق الناس إليه.

٥- حديث الإفك.

وخلاصته أن السيدة عائشة ﵂ كانت مع النبى ﷺ في تلك الغزوة وفي بعض المنازل سقط منها عقدها فرجعت تلتمسه، ومضت القافلة دونها دون أن تشعر بغيابها، وكان صفوان بن المعطل في آخر الجيش فعثر عليها وعرفها لأنه قد رآها قبل أن تفرض آية الحجاب فأناخ لها بعيره وحملها لتلحق بالقافلة، ولحق بالجيش العائد في ساعة الظهيرة فلما رآها الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به، ووجد عبد الله بن أبى بن سلول ذلك الأمر متنفسا يفرغ فيه ما بداخله من حقد دفين وبغض وحسد، فجعل يحكى الإفك ويشيعه تلميحا لا تصريحا حتى انتشر بين الناس، ووصل الخبر إلى النبى ﷺ فشاور أصحابه فأشار أحدهم بالفراق وبعضهم بالإمساك.

كل هذا والسيدة عائشة ﵂ لا تعلم عن حديث الإفك شيئا، ولما خرجت مع خادمتها أم مسطح ليلا تعثرت أم مسطح فدعت على ولدها مسطح وهو من الذين خاضوا في حديث الإفك، وعلمت منها السيدة عائشة ﵂ ما يدور على ألسنة الناس ثم مرضت وانتقلت إلى بيت أبيها وظلت تبكى إلى أن البكاء كاد أن يفلق كبدها، وصارحها النبى ﷺ بالحديث في الأمر فسكتت وقالت قول يعقوب ﵇: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة يوسف الآية (١٨).

ثم نزل الوحي ببراءتها فشكرت الله على ذلك، ونزلت آيات سورة النور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ سورة النور الآية (١١).

وأقيم الحد على مسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ولم يجلد عبد بن أبى بن سلول لأنه كان يشيع الخبر سرا، وأنه لم يصرح به، وإما لأن الحدود تخفيفا لأهلها، وقد توعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة.

وافتضح بعدها ابن سلول فلم يستطع أن يرفع رأسه في المدينة، وكان إذا تحدث في أمر بعد ذلك كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه، ولو أمرهم النبى ﷺ بقتله حينئذ لقتلوه.

٦- أهم الدروس والعبر المستفادة من الغزوة وحادثة الإفك.

١- مشروعية القتال في الإسلام، حيث شرع لرد الظلم، ودفع العدوان، وفتح الحدود والحواجز أمام الدعوة كى تنطلق لكل الناس، دون خوف أو إكراه أو قسر.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ سورة البقرة الآية (٢٥٦).

٢- تأييد الله لنبيه بالنصر والتمكين، فقد قذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى فروا من المواجهة **"نصرت بالرعب مسيرة شهر"** جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في المساجد (٥٢١) عن أبي هريرة ﷺ.

٣- أن زواجه ﷺ كان لحكم تشريعية عديدة، فزواجه من السيدة جويرية بنت الحارث كان فتحا لقومها حيث إنها كانت سببا في الحرية لمائة من قومها دخلوا في الإسلام.

قالت عائشة ﵂: (فقد عتق بتزوُّجِه إياها مائةُ أهلِ بيتٍ من بني المصطلق، وما أعلم امرأةً كانت أعظمُ بركةً على قومِها منها).

٤- إن الأحداث الجسام تكشف عن طبيعة النفوس ومعادنها، فأمام حادث الإفك اختلفت معادن الناس، فمنهم من هو معدنه أصيل فقال خيرا، ومنهم من به دخن فتحدث بما في طويته، ومنهم من خاض بغير الحق، فلقى العقوبة في الدنيا، وينزل القرآن ليبرأ ساحة السيدة عائشة ﵂ لأنها كانت وعاءً لبيت النبوة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾سورة النور الآية (١٦).

٥-إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق ﵁ بحديث الإفك خيرا لهم، حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم، وقوة إيمانهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ سورة النور الآية (١١).

٦- إن من بركات آل بيت أبى بكر ﷺ أن الله شرع التيمم بعد معاناة الصحابة في البحث عن الماء، أثناء العودة من الغزوة، وبسبب الإسراع في السفر، وقلة الماء.

٧- إن سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ كان على أوفي ما يكون من العفو والصفح، حيث عفا عن مسطح بن أثاثة، الذى كان ينفق عليه، وخاض في الحادثة، فمنع عنه العطاء فلما نزل القرآن الكريم ليحسم القضية؛ كان سريع الاستجابة للامتثال لأمر الله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة النور الآية (٢٢).

٨-وفي القصة كذلك شرف النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، وهو أشرف النبيين وإمام المرسلين، ولو أمر عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول بقتل أبيه لفعل، وابتغى بذلك رضا رسول ﷺولكنه ﷺ قال له: **"بر أباك"**.

ثم هو ﷺ لم يكن لينتقم لنفسه، ولا يغضب لنفسه، بل يغضب لله ﷻ ولا شك أن ما لاقاه النبي ﷺ من إيذاء واستهزاء، وصبره على ذلك، من أسباب رفعة النبي ﷺ وعلو درجته زاده الله ﷻ تشريفا وتكريما.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا العفو والصفح الجميل فى الدنيا والآخرة،

وأن يجعلنا من المتبعين لهدي النبي الأمين ﷺ.

❁❁❁

(١٧) دور المنافقين في المدينة.

مقدمة.

١. دور المنافقين في المدينة.

٢. دروس وعبر من دور المنافقين.

❁❁❁

مقدمة.

النفاق: هو أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن، فيظهر الإسلام ويبطن الكفر، وطوال الفترة المكية كلها لم يظهر النفاق بين المسلمين، ولا في مكة، لأن المسلمين كانوا في مرحلة استضعاف واضطهاد، والمشركون في عداء واضح مع المسلمين، فالمكان والزمان لا يحتاج إلى نفاق.

وأول ظهور له في المدينة، كان بعد الهجرة بفترة زمنية قصيرة، قبل غزوة بدر، عندما اتصل مشركو قريش بعبد الله بن أبي بن سلول، وكان الأوس والخزرج اتفقوا على أن يتوجوه ملكا عليهم، لولا هجرة الرسول ﷺ فقالت له قريش: (إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسِيرن إليكم أجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم).

فحاول ابن سلول أن ينفذ أوامر إخوانه المشركين، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون، أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم).

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، وامتنع ابن سلول عن تنفيذ الخطة، لكنه كان لا يجد فرصة إلا وينتهزها، لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، ويضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك.

بعد نصر الله للمؤمنين في بدر، وقبل أن يأتي البشير إلى المدينة، كان المنافقون واليهود قد أرجفوا في المدينة، بإشاعة الدعايات الكاذبة، فأشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ولما رأوا زيد بن حارثة راكبًا ناقة النبي ﷺ القصواء، قالوا لقد قتل محمد ﷺ وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلان – أي منهزما – لكن المسلمين أحاطوا بالرسولين الذين أرسلها النبي ﷺ وسمعوا منهما الخبر بالنصر.

حينما نزل بنو قينقاع على حكم الله ورسوله ﷺ قام ابن سلول بدور نفاقه، فألح على الرسول ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال: (يا محمد أحسن في موالي) وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر مقالته، وأدخل يده في جيب درعه، فغضب الرسول ﷺ وقال (ويحك أرسلني).

وأصر المنافق، وقال: (لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله امرؤ أخشى الدوائر) فوهبهم له الرسول ﷺ وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه.

في غزوة أحد، وبعد صلاة الفجر في يوم المعركة، تمرد عبد الله بن أبي بن سلول، فانسحب بنحو ثلث الجيش، وهم في طريقهم للمعركة، ثلاثمائة مقاتل، قائلا: ما ندرى علام نقتل أنفسنا، وتظاهر بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره.

والحقيقة كان هدفه التمرد، وإحداث بلبلة واضطراب في جيش المسلمين، على مرأى ومسمع من عدوهم، وتنهار معنويات الجيش، ويتشجع العدو، وتعلوا همته لرؤية المنظر، فيكون أسرع في القضاء على النبي ﷺ والصحابة ﷺ فيصفوا له الجو، وتعود الرياسة إليه هو وأصحابه.

وأوشكت محاولته على النجاح، فقد هَمَّت بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتا بعدما سار فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب، ونزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ سورة آل عمران: ١٢٢.

وراجعهم عبد الله بن حرام ﷺ وحذرهم ووبخهم من موقفهم بالرجوع، وسجل القرآن الكريم هذا المشهد في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ سورة آل عمران: ١٦٧.

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين ففضحهم، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ﷺ مع إزالة الشبهات والوساوس، التي كانت

تختلج في قلوب ضعفاء المسلمين، والتي كان يثيرها المنافقون وإخوانهم اليهود، أصحاب الدس والمؤامرات.

بعد تآمر بنو النضير على قتل النبي ﷺ حاصرهم، ونزلوا على حكمه بالجلاء، فبعث إليهم ابن سلول أن اثبتوا وتمنعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الحشر: ١١.

فقالوا للرسول ﷺ: (لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك) وبعد طول حصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وتخلى عنهم المنافقون، وفضح الله ﷻ مسلكهم، وتخاذلوا عن الجهر بكيدهم.

وفي غزوة الأحزاب، تزعزعت قلوب المنافقين، وضعفاء النفوس، عندما رأوا جيش المشركين، وأخذوا يتحججون بحجج واهية، للتخلف عن الغزوة، وتثبيط همم المسلمين أمام هذا الحصار الشديد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١٢.

وقال بعض المنافقين كان محمد ﷺ يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال بعضهم كما حكى القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ سورة الأحزاب: ١٣. فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة.

وأما عن دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق، فقد ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار؛ ليعود سعد بن عبادة ﷺ فمر بمجلس فيه عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، فخمر أنفه، وقال: (لا تغبروا علينا) ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن الكريم، قال: (اجلس في بيتك ولا تؤذنا في مجالسنا) وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام، ولما تظاهر به بعد بدر، لم يزل عدوا لله ولرسوله ﷺ.

وكان يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة فيقول: (هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا) ثم يجلس، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب.

وأراد أن يفعل ذلك بعد أحد، بعدما ارتكب من الغدر والشر، فأخذ المسلمون بثيابه، وقالوا: (اجلس أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت). فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: (والله لكأنما قلت بجرا، أن قمت أشدد أمره) فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: (والله ما ابتغي أن يستغفر لي).

وحينما تزوج النبي ﷺ بأم المؤمنين، زينب بنت جحش ﷺ بعد أن طلقها زيد بن حارثة ﷺ فقال المنافقون: (كانت زوجة خامسة، فكيف صح له هذا الزواج) وكان القرآن الكريم لم يكن يأخذ في الزواج بأكثر من أربعة، وقالوا: (إن زينب ﷺ كانت

زوجة أبنه من التبني، والزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب) وأكثر من الدعاية والقصص والأساطير، ونشرها بين الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١.

وأما دورهم في غزوة بني المصطلق، فهم الذين قالوا ما حكاه القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة المنافقون: ٨.

ولما اختلف الأنصاري مع غلام عمر في سقيا الماء اقتتلا، ونادى كل على قومه، فقال الرسول ﷺ: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة).

ولما بلغ الخبر عبد الله بن أبي بن سلول قال:) أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل).

ثم أقبل على من حضره، فقال لهم: (هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم). فلما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ وعنده عمر رضي الله عنه فقال: (مر عباد بن بشر رضي الله عنه فليقتله) فقال ﷺ: (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس، أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا).

فلما أخبر النبي ﷺ أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: (فأنت يا رسول الله ﷺ تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز) وأنزلت سورة المنافقون.

وكان أبنه رجلًا صالحًا فتبرأ منه، ووقف على باب المدينة، واستل سيفه، ثم قال لأبيه: (والله لا تجز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل) فأذن له الرسول ﷺ وقال ابنه للرسول ﷺ: (إن أرت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه).

وفي حادثة الإفك، وجد ابن سلول فيها متنفسا، من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يشيع الحدث ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما عاد إلى المدينة أخذ في نشر الخبر وإشاعته تلميحا لا تصريحا، فقام النبي ﷺ على المنبر يستعذر منه، فأظهر أسيد بن حضير ﷺ رغبته في قتله، وعارضه سعد بن عبادة ﷺ فأسكتهم النبي ﷺ.

ولما برأ القرآن الكريم ساحة عائشة ﵂ أقيم الحد على من خاض في الحادثة، وأما ابن سلول الذي تولى كبره لم يُحد، لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله ﷻ بالعذاب العظيم في الآخرة.

وبعد أشهر أفتضح أمره، قال ابن إسحاق: (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاقبونه، ويأخذونه ويعنفونه).

فقال رسول الله ﷺ لعمر: (كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له آنف، ولو أمرت اليوم بقتله لقتلته) فقال عمر ﵁: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وفي غزوة خيبر قام المنافقون يعملون لصالح اليهود، فأرسل ابن سلول إلى يهود خيبر، (إن محمدًا ﷺ قصد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزّل، لا سلاح معهم إلا قليل) فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر، إن هم غلبوا المسلمين.

وفي غزوة تبوك كان المنافقون يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتصلون بملك الروم، بواسطة أبي عامر الفاسق، وسيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام.

ولم يبخل أحد بماله إلا المنافقون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة التوبة: ٧٩.

وفي تبوك أيضا، خلف رسول الله ﷺ على أهله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره بالإقامة فيهم، وغمص عليه المنافقون، فخرج فلحق برسول الله ﷺ فرده إلى المدينة وقال: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي).

ولما عاد الرسول ﷺ من الغزوة، جاء المنافقون وكانوا بضعة وثمانين رجلا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله ﷻ.

لقد عقد المنافقون آمالهم على الروم، ويتربصون بالمسلمين الدوائر، وبعد الغزوة استكانوا واستسلموا للأمر الواقع، وأمر الله نبيه ﷺ والمسلمين بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم، والقيام على قبرهم، وأمر بهدم مسجد الضرار، وأنزل فيه آيات تفضحهم، ولم تبق معرفتهم بعد خفاء، حيث أعلم الله نبيه أسماءهم، وأعلم بها حذيفة بن اليمان، كاتم سر النبي ﷺ.

مات رأس المنافقين ابن سلول بعد رجوع الرسول ﷺ من غزوة تبوك، فاستغفر له رسول الله ﷺ وصلى عليه، بعد أن حاول عمر رضي الله عنه منعه من الصلاة، ونزل القرآن الكريم بعد ذلك بموافقة عمر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ سورة التوبة: ٨٤.

❁❁❁

٢- وتبين من دراسة وعرض موضوع المنافقين في المدينة عدة حقائق، يمكن إبرازها في صورة دروس وعبر مستفادة من دراسة حالتهم:

١-إن النفاق يظهر في المجتمع المسلم عند قوة المسلمين وشوكتهم، فلا يستطيع خصوم الإسلام المواجهة، فيلجأون إلى النفاق، لإضعاف المجتمع من داخله، وقد قال بعض الماكرين منهم: (لا يقلع الشجرة إلا فرع من فروعها).

والنبي ﷺ حذر من ذلك في آخر الزمان في وصفهم فقال: (أناس من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا).

والقرآن الكريم حسم الموضوع في تعليم المسلمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ سورة المنافقون: ٤.

فيلجأ أعداء الإسلام من الخارج إلى تأليبهم على المسلمين من الداخل، كما فعل مشركو قريش مع ابن سلول، وكما فعل مشركو قريش مع بني قريظة وهكذا.

٢-يلجأ خصوم الإسلام عن طريق المنافقين إلى تفريق الكلمة، وشق الصف، وبث الفرقة، كما فعل ابن سلول مع الجيش الإسلامي في أحد، حيث رجع بثلث الجيش، قبل القتال مباشرة، لبث روح الفرقة، وإضعاف روح المقاومة عند المسلمين، وكذلك بنائهم لمسجد الضرار.

٣-نشر الأخبار الكاذبة، والشائعات المغرضة، كما فعل المنافقون بعد غزوة بدر، حينما رجع زيد بن حارثة بناقة الرسول ﷺ فقالوا: (لقد قتل محمد وهزم المسلمون).

وكذلك خوضهم في حادثة الإفك، ونشرهم الأكاذيب والافتراءات، وقولهم أثناء حصار الأحزاب: (إن محمدا كان يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على قضاء حاجته).

٤-نقل أخبار المسلمين وأسرارهم إلى الأعداء، فقد أرسلوا إلى يهود خيبر: (إن محمدا قادم إليكم) فأعلمهم الخبر ليستعدوا مبكرًا، ويستعينوا بغطفان لإكثار عددهم، أو يصمدوا فترة طويلة من الحصار، حتى يملّ المسلمون، ويعودوا إلى المدينة.

٥-موالاة اليهود وأعداء الإسلام صراحة علانية، مثل بني قينقاع، والنضير، وقريظة، وخيبر، ومشركي قريش، وغطفان، وكل من له خصومه مع الإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ سورة النساء: ١٤٤.

٦-يقبضون أيديهم عن الإنفاق عمدا لا فقرا، ويصرحون بذلك علانية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ سورة المنافقون: ٧.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الأحزاب: ١٩.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة يس: ٤٧. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ سورة التوبة: ٧٥.

فجاء القرآن الكريم وكشف ما بنفوسهم من كراهية، وما في قلوبهم من كفر صريح، ولا ينخدع المسلمون بما يقولون بألسنتهم، وإنما لابدَّ من الحيطة والحذر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ سورة البقرة: ٢٠٤.

لقد أنزل الله ﷻ فيهم عدة سور من القرآن الكريم تكشف حقيقتهم، حتى لا ينخدع بهم المسلمون عبر التاريخ، فليقرأوا سورة المنافقون، والتوبة، والنساء، والأحزاب، ففي ذلك ما يغني ويكفي في فهم أصول النفاق، وحقيقة المنافقين.

❁❁❁

(١٨) عمرة الحديبية أو صلح الحديبية.

١. سبب العمرة أو الصلح.

٢. خط سير العمرة، وتطور الأحداث.

٣. ما يترتب على الصلح.

٤. الدروس والعبرة المستفادة من صلح الحديبية.

❁❁❁

١- سبب العمرة أو الصلح:

حينما تطورت الظروف في الجزيرة العربية لصالح المسلمين، ونجحت الدعوة في التقدم شيئا فشيئا، بدأت التمهيدات لإقرار حقوق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام.

رأى النبي ﷺ في منامه أنه دخل هو والصحابة ﷺ المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطاف بالبيت واعتمر، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر الصحابة ﷺ ففرحوا بذلك، وظنوا أنهم داخلون مكة معتمرين هذا العام، فتجهزوا للسفر.

❁❁❁

٢-خط سير العمرة، وتطور الأحداث:

استنفر النبي ﷺ الصحابة ﷺ ومن حولهم من أهل البوادي، فأبطأ بعضهم، وتجهز بعضهم، أما هو فتجهز فغسل ثيابه، وركب ناقته القصواء، واستخلف على

المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ﷺ وخرج مع زوجته أم سلمة ﷺ في ألف وأربعمائة، ومعهم سلاح المسافر فقط.

تحرك النبي ﷺ في اتجاه مكة، وأحرم من ذي الحليفة، وبعث بين يديه، فقال: (إني تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت). واستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يميلوا على ذراريهم، أم يؤمون البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال أبو بكر ﷺ إنما جئنا معتمرين ولم نأت لقتال، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فمال النبي ﷺ إلى هذا الرأي.

لما علمت قريش بخروج الرسول ﷺ عقدوا مجلسا استشاريا، وقرروا صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، نقل إلى النبي ﷺ أن قريشا نزلت بذى طوى، وأن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد، مرابطة بكراع الغميم، وحاول خالد صد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم، وكانوا في صلاة الظهر يركعون ويسجدون، فقال: (لو حملنا عليهم لأصبنا منهم) فقرر أن يميل عليهم في صلاة العصر ـ ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت الفرصة على خالد بن الوليد ومن معه.

أخذ النبي ﷺ طريقا جانبيا، وترك الطريق الرئيسي ـ ليصل إلى الحرم مرورا بالتنعيم، فلما أدرك خالد أنهم خالفوا طريقة ركض إلى قريش، حتى إذا كان النبي ﷺ في ثنية المرار خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل).

ثم قال: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله ﷺ إلا أعطيتهم إياها).

ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حوض قليل الماء، فما لبث أن نزحوه، فشكو إلى الرسول ﷺ فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا.

لما استقر النبي ﷺ بالحديبية، جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، وقال للرسول ﷺ إني تركت كعب بن لؤى نزلوا عند الحديبية، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، قال رسول الله ﷺ: (إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، وخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبو إلا القتال، فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا، حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره).

قال بديل: (سأبلغهم ما تقول) فلما بلغهم لم يعجبهم ما سمعوا، وأرسلت قريش مكرز بن حفص، فلما رأه الرسول ﷺ قال: (هذا رجل غادر) فقال له الرسول ﷺ مثل ما قال لبديل، فرجع لقومه وأخبرهم.

ثم أرسلت قريش الحليس بن علقمة، فلما رأه الرسول ﷺ قال: (هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها) فبعثوها له، واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: (يا سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت) فرجع ونقل الخبر إلى قريش.

قال عروة بن مسعود الثقفي: (إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته فجاء فكلمه) فقال له النبي ﷺ مثل قوله لبديل، ودار بينهما حوار حاد، حضره بجوار الرسول ﷺ أبو بكر الصديق، والمغيرة بن شعبة، وكان عروة بن مسعود يرمق أصحاب الرسول ﷺ وتعظيمهم له.

فرجع إلى أصحابه فقال: (والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيما له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها).

لما رأى شباب قريش الطائشون، الطامحون إلى الحرب، رغبة زعمائهم في الصلح، فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح، ففكروا أن يتسللوا ليلا إلى معسكر المسلمين، ويحدثوا أحداثا تشعل نار الحرب، وفعلا قاموا بتنفيذ هذا القرار، فخرج سبعون منهم ليلا، وهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة اعتقلهم جميعا، ورغبة في الصلح، أطلق سراحهم، وعفا عنهم.

وأنزل الله قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ سورة الفتح: ٢٤.

أراد النبي ﷺ أن يرسل سفيرا له إلى قريش؛ ليؤكد موقفه وهدفه، فدعا عمر بن الخطاب ﷺ فاعتذر أنه ليس له أحد بمكة من بني عدي بن كعب يغضب له إذا أوذى، واقترح اسم عثمان بن عفان ﷺ لأن عشيرته بمكة، وأرسل النبي ﷺ عثمان إلى قريش، وأخبرهم أنهم لم يأتوا لقتال، وإنما جاءوا عُمَّارا، وكلفه النبي ﷺ أن يأتي بيوتا بمكة، فيها رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان.

انطلق عثمان ﷺ إلى قريش، فأخبرهم رسالة النبي ﷺ قالوا: (قد سمعنا ما تقول فانفذ لحاجتك) وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وحمله على فرسه، وأجاره وأردفه، وبلغ رسالته لزعماء قريش، فعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فرفض أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

احتبست قريش عندها عثمان بن عفان ﷺ ليتشاوروا في الوضع الراهن، وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل، فقال الرسول ﷺ: (لا نبرح حتى نناجز القوم).

ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فبايعوه على الموت، وأخذ الرسول ﷺ بيد نفسه، وقال هذه عن عثمان، ولما جاء عثمان بايع النبي ﷺ أيضا، ولم يتخلف عن البيعة إلا رجل من المنافقين يمسى الجد بن قيس، وكانت البيعة تحت الشجرة، وتسمى بيعة الرضوان، وفيها نزل قول تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ سورة الفتح: ١٨.

لما علمت قريش بالموقف، أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت أن يكون في الصلح، أن يرجع هذا العام، ويأت العام القادم، حتى لا يشيع بين العرب أنه دخل عليهم عنوة، فلما رأى النبي ﷺ سهيلا قال: (سهل لكم أمركم).

❁❁❁

واتفقا على قواعد الصلح وهي:

١-يرجع الرسول ﷺ من عامه هذا، وفي العام القادم يدخل المسلمون مكة، فيقيموا فيها ثلاثا، معهم سلاح الراكب، والسيوف في القرب.

٢-وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٣-من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزء من ذلك الفريق.

٤-من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه أي هاربا منهم رده عليهم، ومن جاء قرشا ممن مع محمد لم يُرد عليه.

❁❁❁

ثم دعا النبي ﷺ عليا رضي الله عنه ليكتب الكتاب، فأملى عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: أما الرحمن فو الله لا ندرى ما هو؟. ولكن اكتب (باسمك اللهم) فأمر النبي بذلك، ثم أملى: (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله،

فقال: (إني رسول الله وإن كذبتموني) وأمر عليا أن يمحوا فرفض، فمحاه النبي ﷺ بيده، ثم تمت كتابة الصحيفة، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

أثناء الكتابة، جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، فقال سهيل: (هذا أول ما أقاضيك عليه، على أن ترده) فقال النبي ﷺ: (إنا لم نقض الكتاب بعد) فقال سهيل: (إذا لا أقاضيك على شيء أبدا) فقال النبيﷺ: (فأجزه لي) فقال: ما أنا بمجيزه لك.

وضرب سهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه، وجره ليرده إلى المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته، يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطيناهم عهد الله فلا نغدر بهم).

فوثب عمر مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: (اصبر يا أبا جندل، فإنما هم مشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب) ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر: (رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه).

لما فرغ الرسول ﷺ من الكتاب قال: (قوموا فانحروا) فو الله ما قام منهم أحد، حتى قال ثلاث مرات، فلم يقم أحد، فدخل على أم سلمة ﵂ فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت يا رسول الله: (أتحب ذلك، اخرج لا تكلم أحدا حتى تنحر بدنك،

وتدعوا حالقك فيحلقك) ففعل، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ودعا رسول الله ﷺ بالمغفرة للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة، ونزلت أية الفدية لمن كان برأسه أذى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ سورة البقرة: ١٨٤.

جاءت نسوة مؤمنات، فسأل أولياؤهم أن يردهن عليهم بالعهد الذي تم في الحديبية، فرفض طلبهم هذا، لأن العهد نص على الرجال فقط، وأنزل الله ﷻ آية الممتحنة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الممتحنة: ١٠.

فمن أقرت بهذه الشروط، قال النبي ﷺ قد بايعتك، وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات.

❁❁❁

٣-ماذا يترتب على صلح الحديبية:

١-هو فتح عظيم، لأن فيه اعتراف من قريش بالمسلمين، وكانت تهدف استئصالهم، وتحاول الحيلولة بين الدعوة وبين الناس، بحكم الزعامة الدينية، فأصبحت قريش لا تقدر على مقاومتهم.

٢-نسيت قريش صدارتها وزعامتها الدينية، فأصبح لا يهمها إلا نفسها، وأصبح دخول الناس في الإسلام لا يهم قريشا، وهذا فشل ذريع لها.

٣-إن هدف المسلمين من الحروب التي خاضوها لم يكن تحصيل مال، أو زهق أرواح، أو إكراه الناس على اعتناق الإسلام، وإنما الهدف هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ سورة البقرة: ٢٥٦.

فكسب المسلمون بتحقق هذا الهدف نجاحا كبيرا في الدعوة، فقبل الهدنة كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف، وبعدها أصبح عشرة آلاف.

٤-في البند الثاني، كان المقصود من الدوريات العسكرية التي خاضها المسلمون أن تفيق قريش عن غطرستها، وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، ووضع الحرب عشر سنوات، كان حدا لهذه الغطرسة، والصد عن سبيل الله، وفشل قريش.

٥-فشلت قريش في صد المسلمين عن المسجد الحرام، سوى عام واحد فقط، وحصلت قريش على ميزة واحدة فقط، وليس فيها شيء يضر بالمسلمين، لا يفر المسلم عن الإسلام إلا إذا ارتد ظاهرا وباطنا، ومثل هذا لا خير فيه، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ: (إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله).

وأما من أسلم من أهل مكة، وليس له سبيل للمدينة، فأرض الله واسعة، مثل هجرة المسلمين للحبشة، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: (ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا). فمظهر هذا البند اعتزاز لقريش، وفي الحقيقة انزعاج وهلع لها، وخوفهم على كيانهم الوثني، فأصبح على شفا جرف هار، لابد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ.

٦-حزن المسلمون على رجوعهم دون أداء العمرة، وقد أخبرهم النبي ﷺ أنهم سوف يأتون البيت ويطوفون، كما أنهم على الحق الواضح المبين، والله وعده بإظهار دينه، فلم الدنية في الصلح.

٧-صارت مشاعر المسلمين جريحة، وغلب الهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح، فجاء عمر إلى النبي ﷺ وقال: (ألسنا على الحق وهم على باطل؟ قال: بلى قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال بلى، قال ففيم نعط الدنية في ديننا ونرجع، ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: (يا بن الخطاب، إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري، ولن يضيعني أبدا).

قال: أو لست كنت تحدثنا أنا نأت البيت فنطوف به؟ قال بلى، فأخبرتك أنا نأته العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه، ثم انطلق عمر متغيظا، فأتى أبا بكر، فقال له ما قاله للرسول ﷺ فرد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول لله ﷺ وزاد، (فاستمسك بغرزه حتى تموت، فو الله إنه لعلى الحق). ثم نزلت الآية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ سورة الفتح: ١.

فأرسل النبي ﷺ إلى عمر فاقرأه إياه، فقال: يارسول الله، أو فتح هو؟ قال نعم. فطابت نفسه ورجع، وندم عمر على ما فرط منه ندما شديدا، قال عمر: (فعملت لذلك أعمالا ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى واعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا).

٨-بعدما عاد النبي ﷺ إلى المدينة، انفلت رجل من المستضعفين ممن كان يعذب في مكة، وهو أبو بصير، رجل من ثقيف، فأرسلوا في طلبه رجلين، فدفعه النبي ﷺ إليهما، فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة، نزلوا يأكلون من تمر لهم.

فقال أبو بصير لأحد الرجلين: (والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكن منه فضربه حتى برد).

وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال الرسول ﷺ حين رآه: (لقد رأى هذا ذعرا) فقال: (قتل صاحبي وإني لمقتول) فجاء أبو بصير وقال: (يا نبي الله، قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم).

قال رسول الله: (ويل أمه! مسعر حرب لو كان له أحد). فعلم أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فو الله ما يسمعون بعير لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا

أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن آتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فقدموا عليه المدينة.

❁❁❁

٤-دروس وعبر من صلح الحديبية:

١-من سنن الله في الكون والحياة، عدم استمرار الأمور على حالة واحدة، فالضعيف لا يبقى ضعيفا، والقوى لا يبقى قويا، فدار الدهر دورته، وقويت شوكة المسلمين، فبدأوا يسعون للحصول على حقهم في العبادة في المسجد الحرام.

٢-الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، فكيف إذا كانت رؤيا من النبي ﷺ؟ فلما رأى النبي ﷺ رؤيته في الدخول في المسجد الحرام، والطواف بالبيت، فرح المسلمون بذلك، وقد حرموا من ذلك ست سنوات.

٣-تحسس النبي ﷺ للأخبار وهو في طريقه لمكة، ليعرف موضع قدمه، ويعرف استعدادات العدو، فيكون على أهبة الاستعداد لكل حالة، يعد لها ما يناسبها، واستشار النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم في حالة الموقف، وأخذ بالرأى المناسب للحالة والموقف.

٤-أخذت قريش رأيها بعد مشاورة، وصممت عليه، واستعد خالد بجنوده الفرسان، وأضاع النبي ﷺ عليهم الفرصة بالطريق الجانبي، وتأكد لخالد أن النبي ﷺ محمي، ومحفوظ ومؤيد بالوحي، بعدما راقبهم في صلاة الظهر، فاستعد لمهاجمتهم في صلاة العصر، فشرعت صلاة الخوف، وأسلم خالد بعد صلح الحديبية بفترة قصيرة.

٥-تدبير الله لنبيه ﷺ واختياره له ما هو خير له، حيث بركت القصواء، فقال النبي ﷺ: (حبسها حابس الفيل) فالموقف يميل إلى المسالمة والمصالحة، وليس للحرب والقتال إلا للضرورة القصوى.

٦-أرسلت قريش عدة رسل لها، فكان النبي ﷺ يقرأ الموقف من معرفته بشخصية الرسول، ويحدد طريقة المعاملة بناءً على طبيعة الشخصية، والرسالة التي يريد النبي ﷺ أن يبلغها لقريش، وقد تكون بالفعل والعمل، ثم تأكيدها بالكلام، فكان من الأفراد من يعظم البيت، فقدم النبي ﷺ له الهدى، ومنهم الغادر، ومنهم من يرقب النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم ويرى مدى حبهم له، وتسابقهم في خدمته، وكانوا ينقلون ما يرون من صورة لقريش.

٧-كانت الحراسة لمعسكر المسلمين على أعلى درجة من اليقظة، فلما حاول شباب من قريش أن يتسللوا إلى المعسكر ليلا ليشعلوا نار الفتنة، قبض عليهم محمد بن مسلمة، وحجزهم إلى أن تم الصلح.

٨-مراجعة الجندي للقائد، وإبدائه لوجهة نظره، فاعتذر عمر رضي الله عنه عن سفارته إلى قريش، حيث ليس له من قوة في بنى عدي تحميه، واقترح اسم عثمان رضي الله عنه لقوة قبيلته في حمايته، ووافق الرسول ﷺ وذهب عثمان رضي الله عنه وبلغ الرسالة، ورفض الطواف قبل النبي ﷺ لأدبه واحترامه له.

ولما أشيع أنه قد قتل بايع النبي ﷺ الصحابة ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان، التي خلد ذكرها القرآن، ورضي الله فيها عن المؤمنين، ووضع النبي ﷺ يده مكان يد عثمان في البيعة، إلى أن عاد هو وبايع بنفسه، وبايع أيضا.

٩-قرأ النبي ﷺ رسالة الصلح في وجه سهيل بن عمرو، ونزل النبي ﷺ على شروط قريش، والتي ظاهرها الإجحاف بالمسلمين، لكنه الوحي المنزل الذي فيه الخير والفتح، وتحولت بنود الجور كلها إلى صالح المسلمين فيما بعد، بل كانت معاهدة الصلح نفسها سبب لفتح مكة، حينما اعتدت بنو بكر على خزاعة في الحرم، فعجلت بالفتح.

١٠-في نصوص المعاهدة رفض على بن أبي طالب ﷺ أن يحذف وصف النبي ﷺ بالرسالة، فمحاها النبي ﷺ بنفسه، واعترض عمر ﷺ على الدنية في المعاهدة، والشروط الجائرة، والمسلمون على الحق المبين، واستفهم عن تحقيق ما رأه النبي ﷺ في الرؤيا، وأجابه النبي ﷺ بما فيه الكفاية، ولما ذهب لأبي بكر ﷺ أعاد عليه أجوبة النبي ﷺ وقال: (الزم غرزه إنه رسول الله ﷺ) وكل ما فعله رسول الله ﷺ كان فيه لاخير للجميع.

١١-التزام النبي ﷺ ببنود المعاهدة أثناء كتابتها في رده لأبى جندل، وطلب منه الصبر، وأن الله سيجعل له فرجا ومخرجا، وقد كان حيث تجمع مع أبي بصير، وبعض المهاجرين، وقطعوا طريق قريش في التجارة للشام، حتى طلبت قريش نفسها من الرسول ﷺ أن يقبلهم.

في مشورة أم سلمة للنبي ﷺ في النحر والحلق، كان في ذلك البركة، فالمرأة لا يعدم منها الخير في الرأي والمشورة، حيث عمل برأيها النبي ﷺ وتسابق الصحابة رضي الله عنهم في التطبيق، ودعا النبي ﷺ بالمغفرة للمحلقين ثلاثا، والمقصرين مرة واحدة.

١٢-التزم النبي ﷺ بحرفية النص في المعاهدة، فلم يرد النساء المهاجرات، لأن النص كان على الرجال فقط، فكان يقرأ عليهن الآية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الممتحنة: ١٠.

فمن أقرت بايعها النبي ﷺ والتزم الصحابة رضي الله عنهم بالآية، فطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات.

❁❁❁

(١٩) غزوة خيبر دروس وعبر.

١. سبب الغزوة.

٢. خط سير الغزوة وأحداثها.

٣. دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

تبعد خيبر عن المدينة المنورة ثمانين ميلا تقريبا، من جهة الشمال، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، وكانت الغزوة في المحرم سنة ٧هـ.

١- سبب الغزوة:

أَمن الرسول ﷺجهة قريش في مكة من خلال صُلح الحديبية، وأما قبائل نجد فكان يرسل لها البعوث والسرايا، وأما باقي الفريق الثالث، وهم يهود خيبر، مركز الدس والتآمر، والاستفزازات العسكرية، وإثارة الفتن والحروب، فكانوا موضع نظر واهتمام، فهم مصدر قلق واضطراب.

فيهود خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة، وهم على تواصل دائم مع المنافقين داخل المدينة، وكذلك مع غطفان، وأعراب البادية، وهم أنفسهم كانوا يتهيأون للقتال، فجعلوا المسلمين في محن متواصلة، فلما أمن النبي ﷺ جانب قريش بصلح الحديبية، حان الوقت لمحاسبة هؤلاء المجرمين على تاريخهم السابق، فيما اقترفت أيديهم.

❁❁❁

٢-خط سيرة الغزوة وأحداثها:

قال المفسرون: كانت خيبر وعدا وعدها الله بقوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة الفتح: ٢٠.

فالمغانم الكثيرة هي خيبر، وكان المنافقون وضعاف الإيمان قد تخلفوا عن الرسول ﷺ في غزوة الحديبية، فأنزل الله قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الفتح: ١٥.

فلما أراد الرسول ﷺ الخروج إلى خيبر، أعلن أنه لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة، وكانوا ألفا وأربعمائة، وبعد خروجهم قدم أبو هريرة رضي الله عنه إلى المدينة مسلما، فجهزه سباع بن عرفطة، الذي استخلفه النبي ﷺ على المدينة، فقدم عليهم في خيبر، وكلم المسلمين فأشركوه في سهامهم.

أرسل عبد الله بن أبي بن سلول إلى يهود خيبر يخبرهم أن محمداً ﷺ قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عدوكم وعدتكم كثيرة، وهم شرذمة قليلون، لا سلاح معهم إلا القليل.

فلما علم أهل خيبر بذلك، أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم، فهم حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر، إن هم غلبوا المسلمين.

تهيئات غطفان للذهاب إلى خيبر، لكن النبي ﷺ مرَّ بطريق قريب من مساكنهم، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم، فرجعوا وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين ليسلكا بالجيش الطريق الأحسن، حتى يدخل من جهة الشمال، أي من جهة الشام، فيحول بين اليهود وبين فرارهم إلى الشام، وكذلك بين غطفان، واختار النبي ﷺ طريقا اسمه مرحب، للوصول إلى خيبر.

بينما الصحابة رضي الله عنهم يسيرون ليلا إلى خيبر، طلب رجل من القوم من عامر بن الأكوع، أن يسمعه من هُنيهاته، حيث كان رجلا شاعرا فيحدوا بالقول، فقال:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ∴ ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداك الله ما اقتفينا ∴ وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ∴ إنا إذ أصيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا.

فقال الرسول ﷺ: (من هذا السائق؟). قالوا: عامر بن الأكوع، فقال: (يرحمه الله). قال رجل من القوم: (وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به). وكانوا يعرفون أن النبي ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد.

ولما دنا النبي ﷺ من خيبر وأشرف عليها، قال قفوا، فوقف الجيش فقال: (اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ ب من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا باسم الله).

لما وصل المسلمون إلى خيبر، باتوا الليلة الأولى قريبا منها، فلما أصبح النبي ﷺ صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد والخميس، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ: (الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

كانت خيبر مقسمة إلى شطرين، شطر فيه خمسة حصون وهي:

الشطر الأول: ناعم. الصعب بن معاذ. قلعة الزبير.أُبيٍّ. النزار.

والشطر الثاني: يعرف بالكتيبة، وفيه ثلاثة حصون:

القَمُوص وهو حصن بنى أبي الحقيق. الوطيح. السُّلالم.

والحصون التي في الشطر الأول وقع فيها قتال مرير، والحصون الثلاثة الأخرى سُلمت دون قتال.

تقدم الرسول ﷺ حتى اختار لمعسكره منزلا، فأتاه حُبَاب بن المنذر، فقال: مثل ما قال للنبِّي ﷺ يوم بدر، يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله أم هو الرأي في الحرب؟. قال: (بل هو الرأي).

فقال: (يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدا من حصن نطاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرا) قال ﷺ: (الرأي ما أشرت) ثم تحول إلى مكان آخر.

ولما كانت الليلة الأولى للدخول بعد عدة محاولات قال النبي ﷺ: (لأعطين الراية غدا رجلا). فلما أصبح الناس غدو على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطها، فقال ﷺ: (أين علي بن أبي طالب؟) فقالوا: (هو يشتكي عينه، قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ، كأنه لم يكن به وجع، فأعطاه الراية).

فقال يا رسول الله ﷺ: (أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟) قال: (انفد على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم).

بدأ المسلمون بمهاجمة حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول، وحصن مرحب، البطل اليهودي الذي كان يعدونه بالألف، خرج علُّى بالمسلمين إلى الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام فرفضوا، وبرزوا له معهم ملكهم مرحب، ثم دعا للمبارزة وهو يقول:

قد عَلِمتْ خيبر أني مَرْحَب ∴ شَاكِي السلاح بطل مُجَرَّب

إذا الحروب أقبلتْ تَلَهَّب.

فبرز له عامر بن الأكوع وهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر ∴ شاكي السلاح بطل مُغَامِر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترمس عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرا، فتناول به سيف اليهودي ليضربه، فيرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبي ﷺ: (إن له لأجرين – وجمع بين أصبعيه – إنه لجاهد مجاهد، قل عربُّى مَشى بها مثله).

فدعا مرحب للمبارزة مرة أخرى وهو يرتجز: قد علمت خيبر أني مرحب.

فبرز له عليّ وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَهْ ∴ كلَيْثِ غابات كَرِيه المَنْظَرَهْ

أوفِيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدَرَهْ

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه، ولما دنا علُّى من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن وقال: (من أنت؟) فقال: (أنا على بن أبي طالب) فقال اليهودي: (علوتم وما أنزل على موسى).

ثم خرج ياسر أخو مرحب، وهو يقول: (من يبارز؟) فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أُمُّه: (يا رسول الله، يقتل ابنى؟) قال ﷺ: (بل ابنك يقتله) فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين بعد ما يئسوا من القتال، فتسللوا من هذه الحصن إلى حصن الصعب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

حصن الصعب بن معاذ: كان فيه من القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه، تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري، وفرضوا الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث ذهب بنو سهم من أسلم إلى رسول الله ﷺ فقالوا، لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء فقال: (اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرهم طعاما وودكا).

فغدا الناس، ففتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، ما بخير حصن كان أكثر طعاما وودكا منه.

وكان بنو أسلم في مقدمة المهاجمين، ودارت المبارزة والقتال أمام الحصن، ثم فتح الحصن في ذلك اليوم، قبل أن تغرب الشمس.

وفي وسط هذه المجاعة الشديدة، ذبح المسلمون الحمر الأهلية، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم الرسول ﷺ بذلك: (نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وحرَّمها).

تحول اليهود بعد فتح حصن ناعم والصعب إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع على رأسي جبل، لا تقدر عليه الخيل والرجال؛ لصعوبته وامتناعه، ففرض الرسول ﷺ عليهم الحصار ثلاثة أيام.

جاء رجل من اليهود وقال: (يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرا ما بالوا، إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلاعهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك). فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل في ذلك نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ والمسلمون معه.

انتقل اليهود إلى قلعة أُبيٍّ، وتحصنوا بها، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام رجلان من اليهود بطلب المبارزة، واحد بعد الآخر، وقد قتلهما أبطال المسلمين، والذي قتل المبارز الثاني هو البطل الشهير في غزوة أحد، أبو دجانة، صاحب العصابة الحمراء، وأسرع أبو دجانة بعدها إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامي، واستمر القتال ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار، آخر حصن في الشطر الأول.

كان حصن النزار أمنع الحصون، وكان اليهود على ثقة بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحامه، لذلك وضعوا فيه النساء والذراري، حاصر المسلمون الحصن حصارا شديدا، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، والحصن يقع على جبل مرتفع منيع، وكان اليهود يقاومون برشق النبال، وإلقاء الحجارة، حينئذ أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق، وقذفوا به القذائف، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن واقتحموه، ودار القتال المرير في داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، حيث لم يستطيعوا أن يتسللوا منه إلى حصن آخر، بل فروا تاركين نساءهم وذراريهم، وبمجرد فتح هذا الحصن، أخلى اليهود الحصون الصغيرة، وهربوا إلى الشطر الثاني من خيبر.

فتح الشطر الثاني من خيبر:

توجه النبي ﷺ بعد أن فتح حصون الشطر الأول إلى حصون الشطر الثاني، وهي القموص، والوطيح، والسُّلالم، وكان الفارون من الحصون السابقة قد تجمعوا بها، قيل إن حصون القموص جرى فتحه بالقتال، كما ذكر ابن إسحاق، والواقدي يصرح أن الثلاثة أخذت بالمفاوضات، ويمكن أن يكون المفاوضات قد تمت بعد قتال مع حصن القموص، والنبي ﷺ قد فرض عليهم الحصار أربعة عشر يوما، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح.

أرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ فكلمه على الصلح، مع حقن دماء من في الحصون، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر بذراريهم، ويخلون بين الرسول ﷺ

وبين ما لهم من مال وأرض، والذهب والفضة، والكُراع والحلقة، إلا ثوبان على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ: (وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئا).

فصالحوه على ذلك، وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر بجميع حصونها.

أخفى ابن أبي الحقيق مالا كثيرا، وحليًا كان لحيي بن أخطب كان قد احتملها معه حين أجليت بنو النضير، حيث جاء رجل من اليهود فأخبر النبي ﷺ بموضع المال في خرابة عندهم.

فقال النبي ﷺ لكنانة بن أبي الحقيق: (أرأيت إن وجدنا عندك أأقتلك؟. قال: نعم، فحفرت الخربة فأخرج منها بعض كنوزهم، ثم دفعه النبي ﷺ إلى الزبير انتزع منه الاعتراف بمكان باقي المال، ثم دفعه النبي ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن سلمة، حيث ألقى اليهود عليه حجارة رحى، وهو يستظل بجدار حصن ناعم فمات.

سبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، وكانت عروسة حديثة عهد بالدخول، كان دحية بن خليفة الكلبي ﷺ قد طلب من النبي ﷺ جارية من السبي، فقال: (اذهب فخذ جارية) فأخذ صفية، فقال أحد الصحابة ﷺ: (إنها لا تصلح إلا لك) فقال النبي ﷺ: (ادعوه بها) فجاء فنظر إليها النبي ﷺ وقال: (خذ جارية من السبي غيرها).

وعرض النبي ﷺ عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، حتى إذا كان بسد الصهباء، راجعا إلى المدينة حلت، فجهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح عروسا بها، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبنى بها.

ورأى النبي ﷺ بوجهها خضرة، فقال: (ما هذا؟) قالت: (رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه، وسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا، فقصصتها على زوجي، فلطم وجهي) فقال: (تمنين هذا الملك الذي بالمدينة).

أراد الرسول ﷺ أن يجلي اليهود من خيبر، فقالوا يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، وليس للنبي ﷺ والصحابة ﷺ غلمان يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر، وكان عبد الله بن رواحة ﷺ يخرصه عليهم، وقسم النبي ﷺ أرض خيبر على ستة وثلاثين سهما، جمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، للرسول ﷺ نصفها، وللمسلمين نصفها، وللنبي ﷺ سهم واحد مثل بقية الصحابة ﷺ وعزل النبي ﷺ نصف الأسهم للنوائب وما ينزل بالمسلمين

كانت الغنائم طعمة من الله لأهل الحديبية، من شهد منهم ومن غاب، قال ابن عمر: (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر) وقالت عائشة رضي الله عنها: (لما فتحت خيبر قلنا، الآن نشبع من التمر).

وفي هذه الغزوة قدم جعفر بن أبي طالب ﷺ ومن معه من المهاجرين للحبشة إلى المدينة، ومعهم الأشعريون، وأصولهم من اليمن، فأسهم النبي ﷺ لهم من مال خيبر، وقال النبي ﷺ: (والله ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أو قدوم جعفر).

❁❁❁

٣-دروس وعبر من غزوة خيبر:

١-حرص النبي ﷺ على تأمين الدولة الإسلامية وحدودها، بالقضاء على مراكز القوى، التي تهدده من الداخل والخارج، فكان يقاتل في جبهة واحدة، فإذا انتهى منها نقل إلى غيرها.

فبعد أن قضى على قبائل اليهود في داخل المدينة، وأمن جانب قريش بصلح الحديبية، وأرسل السرايا والبعوث إلى القبائل المحيطة بالمدينة، تفرغ للقضاء على مركز الدس والمؤامرات في المنطقة كلها، فكانت غزوة خيبر التي لم تقم بعدها لليهود قائمة.

٢-انتقاء النبي ﷺ لمن خرج لفتح خيبر صفوة الجيش من الصحابة رضي الله عنهم وهم الذين بايعوا الرسول ﷺ في صلح الحديبية، ولقد عوضهم الله ﷻ خيرا كثيرا من المغانم التي غنمها المسلمون من خيبر، لم يشبع المسلمون من التمر إلا بعد فتح خيبر.

٣-المنافقون والمشركون واليهود ملة واحدة في عدائهم للإسلام، فباءت محاولات عبد الله بن أبي بن سلول مع اليهود بالفشل الذريع، وكذا غطفان خافوا على أموالهم وذراريهم، وهكذا يتخلى الكفر بعضه عن بعض في وقت الشدة، لأنهم

جميعا حريصون على الحياة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ سورة البقرة: ٩٦.

٤-حرص الصحابة ﷺ على الشهادة وحبهم لها، والتضحية بالنفس في سبيل الجنة ومرضاة الله، فهذا عامر بن الأكوع ﷺ يدعوا له النبي ﷺ بالمغفرة، فيعلم أنه سوف يكون من الشهداء، ولم يتردد عن المبارزة والمقاتلة مع مرحب، ذلك المقاتل الشرس، حتى نال عامر ﷺ الشهادة.

٥-تعليم النبي ﷺ للصحابة في جميع الأوقات والظروف التي تحتاج إلى تعليم، فقبل دخول خيبر وفتحها، دعا النبي ﷺ والصحابة ﷺ يؤمنون دعاء دخول المدينة، ليكون سنة للمسلمين يطبقونها في كل مدينة يريدون أن يدخلوها، فيسألوا الله ﷻ خيرها، ويتعوذون به من شرها.

وكذلك دعاء النبي ﷺ على خيبر وأهلها، وهو مستجاب الدعوة، فكان من بشريات النصر في الغزوة، قبل الخوض والنزال، ومباشرة القتال فيها.

٦-تقسيم اليهود خيبر إلى حصون، ومن قبلها يهود المدينة، فهذا دليل على طبيعتهم النفسية الموحدة عبر التاريخ، فهم يحسبون للزمن تقلباته، وعاديات الأيام، فيتحصنون فيها عند الحروب والمعارك، ويقاتلون من خلف جدرانها، وهذا ما شخصه القرآن الكريم عن نفسيتهم المتأصلة فيهم عبر التاريخ الطويل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ

شَدِيدٌۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الحشر: ١٤.

٧-قبول الرسول ﷺ لرأي الحباب بن المنذر رضي الله عنه الذي أشار فيه إلى تغيير موقع معسكر المسلمين لأسباب فنية وعسكرية، فهذا تعليم من القائد لكي يبدى كل شخص رأيه للمصلحة العامة، ويأخذ به القائد، ما دام الرأي صوابًا، وأفضل من سابقه.

٨-مكانة سيدنا علي رضي الله عنه عند النبي ﷺ حيث أخبر أن من يعطيه الراية فهو يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ويشفى من رمده ببركة تفل النبي ﷺ في عينه، ويحمل الراية والرسالة كما كلفه النبي ﷺ بذلك، ويكون سببا من أسباب فتح خيبر.

ويؤكد له النبي ﷺ أن هداية الناس أهم من قتالهم ومغانمهم، فالمسلمون دعاة لا جباة، كما أكدت مبارزته لمرحب القائد اليهودي الشرس، الشجاعة النادرة التي كان يتمتع بها الإمام علي رضي الله عنه.

٩-سقوط حصون اليهود واحدا بعد الآخر، رغم ما بها من مناعة، فهي فوق رؤوس الجبال، وما عندهم من مخزون كبير من الطعام والشراب، وما معهم من أسلحة وذخيرة، ومع ذلك يتساقطون، فهذا دليل على ضعفهم النفسي، وعلى قوة الصحابة رضي الله عنهم الإيمانية والنفسية، وما خص الله عز وجل نبيه ﷺ من معجزات، أنه نصره على أعدائه بالرعب والدعاء، فتهاوت الحصون أمام عزائم المسلمين وبأسهم.

١٠-سد المسلمون على اليهود بعض مصادر المعيشة مثل الماء، فحجبوا عنهم مصادره؛ فأجبروهم على الاستسلام، فالماء سر الحياة، وهو سلاح استراتيجي في

الحياة، فقديما وحديثا والآن تقوم عليه حياة البشر، وتقوم من أجله المعارك والحروب، وأصبح من يمتلك مصادر الماء وموارده يملك القرار، فكان قرار الاستسلام من اليهود إجباري، لأنهم فقدوا سلاحا من أسلحة المقاومة.

١١-استجابة الصحابة ﷺ للنبي ﷺ لتعليماته في الظروف الصعبة، في تحريم الحمر الأهلية، فكانوا في حرب، ومجاعة، واللحوم في القدور على النار، وتهيأت للطعام، ويخبرهم النبي ﷺ بأن الله ﷻ حرم عليهم لحوم الحمر الأهلية، ويستجيبون في سرعة، دون تردد أو كسل أو خيانة، فيقلبون القدور من فوق النار على الأرض، استجابة للأمر النبوي الشريف.

١٢-نزل اليهود في نهاية الأمر على الاستسلام لحكم رسول الله ﷺ فيخرجوا بأنفسهم وذراريهم دون سلاح ومال، ولما شرط ذلك على كنانة بن أبي الحقيق، وأخبره إن خالف ذلك فقد خان ذمة الله ورسوله، ثم شرط عليه إن وجد مالا أخفاه يقتل، فوافق، وقتل بسبب خيانته، وغنم المسلمون مغانم كثيرة، كما أشار القرآن الكريم في سورة الفتح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الفتح: ١٩.

١٣-زواج النبي ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب ﷺ بعد إسلامها وعتقها، فأصبحت أما للمؤمنين، وهي من نسل موسى وهارون، وعاملها النبي ﷺ بأحسن معاملة كزوجة له، فكان يدافع عنها، ويعلمها كيف ترد على زوجات النبي ﷺ إن

عيرنها بأنها ابنة اليهودي، فقال لها، إن عادوا فقولي: (أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد) وبزواجها دخلت تاريخ المسلمين في السيرة النبوية.

١٤-مصالحة النبي ﷺ لليهود في خيبر، أن يترك لهم الأرض والزرع مقابل نصف محصول الأرض، فهم أعلم بالأرض وزراعتها، وما تحتاجه من خدمة ورعاية، فالمسلمون ليس لديهم غلمان يقومون على خدمة الأرض ومتطلباتها، والجيش الإسلامي متفرغ للفتوحات الإسلامية، والمهمة الكبرى الملقاة عليه، في هداية الناس ودعوتهم، ودلالتهم على الله ﷻ.

وكان عبد الله بن رواحة ﷺ هو الذي يقوم على تخريص الثمار بالعدل، وما يمنعه بغضه لهم من أن يحكم بينهم بالعدل والقسط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة المائدة: ٨.

١٥-صادف عودة جعفر بن أبي طالب ﷺ ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة، وكذلك الأشعريين، وكذلك قدوم أبي هريرة ﷺ إلى المسلمين المجاهدين في خيبر، فتح حصون خيبر، فعبر النبي ﷺ عن فرحته بالجميع، فقال: (لست أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر، أو بعودة جعفر).

وقد قسم النبي ﷺ لهم سهما من الغنيمة؛ تعويضا عما فقدوه، وما أصابهم من فقر وعوز، فكانت غزوة خيبر فتحا عظيما للمسلمين ناحية الدعوة والاقتصاد والسياسة.

وكفى أن الله ﷻ ذكرها في موضع البشارة والنعم التي وعد بها الصحابة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة الفتح: ١٩ – ٢٠.

❁❁❁

(٢٠) غزوة مؤتة دروس وعبر.

١- سبب الغزوة.

٢- خط سير الغزوة.

٣- أحداث الغزوة.

٤- دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

١-سبب الغزوة:

تعد معركة مؤتة أعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة الرسول ﷺ ومؤتة قرية قريبة من الشام، ومن بيت المقدس.

وسبب الغزوة أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمر الغساني، عاملا على البلقاء من قبل قيصر، فأوثقه وضرب عنقه، ومعلوم أن قتل الرسل والسفراء من أشنع الجرائم.

فلما علم النبي ﷺ جهز لهم جيشا قومه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر النبي ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه وقال: (إن قتل فجعفر، فعبد الله بن رواحة).

وعقد النبي ﷺ لهم لواء أبيض، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، ويدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا، وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم.

وقال لهم: (اغزوا بسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا، ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقطعوا نخلا، ولا شجرة، ولا تهدموا بناء).

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة:

ودعت المدينة الجيش وأمراءه، وسلموا عليهم، وبكى عبد الله بن رواحة ﷺ فلما سئل في ذلك قال: (أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ سورة مريم: ٧١.

ولست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود، فقال المسلمون: (صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين). فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ∴ وضربةً ذات فَرْع تَقْذِف الزَّبدا

أو طعنةً بيدي حرَان مُجْهِزَةً ∴ بحَرْبَةٍ تَنْفُذُ الأحشاء والكَبِدا

حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي ∴ يا أرشد الله من غازٍ وقد رَشِدَا

ثم خرج الجيش، وودعهم النبي ﷺ عند ثنية الوداع، وحينما اقترب الجيش من الشام نقلت الاستخبارات أن هرقل نزل بمآب من أرضي الشام، في مائة ألف، وانضم إليه من قبائل العرب مائة ألف.

تشاور المسلمون حينما وصلتهم أخبار جيش الروم، وعددهم مائتا ألف، فاقترح أحدهم أن يكتبوا للرسول ﷺ فيمدهم بالرجال، أو يأمرهم بالمضي.

لكن عبد الله بن رواحة ﷺ عارض هذا الرأي، وقال: (والله إن التي تكرهون للتي خرجتهم تطلبون، أي الشهادة، ولا نقاتل الناس بعدد، ولا قوة، ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة).

واستقر الأمر على قوله، وتحرك الجيش الإسلامي إلى مؤتة، وعسكر هناك، وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم، قطبة بن قتادة العذربى ﷺ وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري ﷺ.

❁❁❁

٣-أحداث الغزوة:

بدأ القتال المرير، معركة عجيبة تشهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ثلاثة آلاف يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل، أخذ الراية زيد بن حارثة ﷺ حب رسول الله ﷺ وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة قليلة النظير، فلم يزل يقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخرّ شهيدا.

حمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ وطفق يقاتل قتالا منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، ولم يزل يقاتل حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعا لها حتى قتل، وأثابه الله بجناحين يطير بهما في الجنة، ويسمى بجعفر الطيار، أو ذي الجناحين،

ووقف عليه ابن عمرو ﷺ وهو قتيل، به خمسون طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني ظهره، وفي رواية: وجدنا في جسده بضعا وتسعين طعنة ورمية.

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ﷺ وتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ∴ كَارِهَةً أَوْ لَتُطَاوِعَنَّهْ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّه ∴ مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ

ثم نزل فأتاه بن عم له بعرق من لحم، فقال شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل، حيئنذ تقدم رجل من بني جعلان – اسمه ثابت بن أقرم – فأخذ الراية وقال يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم قالوا: أنت، قال ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالا مريراً.

قال ﷺ: (لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة، سبعة أسياف، فما بقى في يدي إلا صفيحة يمانية، وفي لفظ آخر: (تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية).

وقال الرسول ﷺ مخبرا الصحابة ﷺ بالمدينة عن طريق الوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر في ساعة القتال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم

أخذ ابن رواحة فأصيب، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم).

لقد نجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام هذا الجيش الكبير من الرومان، طوال النهار، في أول يوم من القتال، وفي اليوم التالي، وضع خالد بن الوليد خطته حيث غير أوضاع الجيش، وجعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرة، والعكس.

فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وبعد تناوش ساعة تأخر خالد بالمسلمين قليلا قليلا، مع حفظ نظام جيشه، فظن الرومان أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء، وهكذا انسحب العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون في الانسحاب حتى عادوا إلى المدينة.

استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلا، أما الرومان فلم يُعرف عدد قتلاهم، وتفاصيل المعركة تدل على كثرتهم، كانت هذه المعركة هي بداية اللقاء الدامي مع الرومان، وتوطئة وتمهيدا للفتوحات التي خاضها المسلمون في أرض الروم، واسقطت هذه الإمبراطورية الضخمة الكبيرة، لتقوم مكانها دولة الخلافة الإسلامية الراشدة.

❁❁❁

٣-الدروس والعبر المستفادة من المعركة:

١-كانت هذه المعركة الضروس، والتي لم تكن متكافئة في العدد والعدة، من المعارك الشرسة التي اكسبت المسلمين سمعة كبيرة وقوية في المنطقة، إذ كيف يتصدى جيش قوامه ثلاثة آلاف، لجيش قوامه مئتا ألف، ويكون عدد شهداء المسلمين هذه القلة النادرة، أربعة عشر شهيدا، أمام كثرة قتلى الروم ومن معهم، فاندهشت القبائل العربية لهذه النتيجة الناجحة لصالح المسلمين، فكان ذلك من عجائب الدهر، ومن رعاية الله وتوفيقه.

٢-أصبح العرب المسلمون بالإسلام شيئا جديدا، وطرازا خاصا، فأصبح لهم هدف وغاية ورسالة في الحياة، بعدما كانوا قبائل فقيرة متناحرة متقاتلة، يعيشون على السلب والإغارة بعضهم على بعض، فالإسلام صنع منهم عمالقة يفتحون البلاد باسم الله، ويعبدون الناس لله، وينشرون العدل والقيم والمبادئ الإنسانية، فجنحت كثير من القبائل بعد هذه الغزوة للدخول في الإسلام، بعدما رأوا ما صنعه الإسلام بالمسلمين.

٣-كشفت المعركة عن القيادات المتميزة التي أفرزها الإسلام، من الكفاءة العالية، والشجاعة النادرة، والاستبسال والثبات في الميدان، حتى آخر نفس في عمره، وحب الشهادة والسعي لها، فثلاثة من القادة يستشهدون وتستمر المعركة، ويجتمع الجيش على خالد بن الوليد، القائد العسكري المحنك، وهو حديث عهد بالإسلام، وينسحب بالجيش دون خسائر، ولا يتتبعه جيش الروم، خوفا من

الكمين، ويعود الجيش سالما إلى المدينة بعدما كسر حدة الروم، وأخاف القبائل التي تريد التمرد أو الاغارة على المسلمين.

٤-أبانت المعركة عن حب الصحابة ﷺ للشهادة في سبيل الله، حيث إنهم لما رأوا جمع الروم الكاثرة، اقترح بعضهم بأن يطلبوا مددا من الرسول ﷺ لكن ابن رواحة ﷺ أحد القادة الثلاثة أقنعهم جميعا بقوله وحجته، فقال: إن الذي تكرهون لهو الذي من أجله خرجتم، فكلهم يحب الشهادة في سبيل الله.

وأما النصر فهو هبة ومنحة وتوفيق من الله، ولا علاقة له بكثرة العدد أو كمية العتاد، فقال: وإنما ننتصر بهذا الدين، وقد قدم القادة الثلاثة أفضل النماذج في الصمود والثبات والاستبسال، وقد أخبر النبي ﷺ عن جعفر: بأنه يطير بجناحيه في الجنة، كما دعا لأولاده الصغار، فعوضهم الله ﷻ من أمور الدنيا ما تستقيم به حياتهم، بعدما فقدوا أباهم شهيدا، وهو حي يرزق عند الله ﷻ يأكل من ثمار الجنة، ويشرب من شرابها.

٥-نهاية المعركة تؤكد أن الأمور تجرى بمقادير من عند الله، وأن النصر من الله يعطيه لمن يستحقه، ويأخذ بأسبابه، من الثبات، والصبر، والطاعة، والوحدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة الأنفال: ٤٥ – ٤٦.

فصانع النصر الحقيقي في هذه المعركة وغيرها إنما هو الله ﷻ وما المسلمون إلا سبب في مباشرة الأسباب فقط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ سورة الأنفال: ٦٠.

٦-كشفت المعركة عن قيمة الفرد المسلم، واحترام المبادئ والقيم في الإسلام، فمن أجل قتل رجل واحد من المسلمين، أرسل النبي ﷺ جيشا ليثأر له، ويسترد هيبة واحترام المسلم، وكما هو معلوم أن الرسل والسفراء لا يقتلون، والمسلمون يحترمون ذلك، وعلى استعداد أن يضحوا في سبيل ذلك بكل شيء، فكانت هذه المعركة من أجل الفرد المسلم، والمبادئ الإنسانية التي يجب أن يحترمها الجميع.

٧-فتحت هذه المعركة الطريق أمام المسلمين لإسقاط الإمبراطورية الرومانية، التي اختل فيها ميزان العدل والأخلاق، فكانت البداية لفتح بلاد الشام، ثم تلاها تبوك، وبعث جيش أسامة بن زيد، ثم الفتوحات في عهد الصديق، والفاروق، حتى أصبحت هذه الدولة الرومانية الكبيرة أثرا بعد عين، ودخلت قبائل العرب في الإسلام، حينما عاينوا قوة المسلمين الصاعدة، تصمد أمام دولة لها اسم وتاريخ ومكانة كبيرة، في النظام العالمي القديم.

❁❁❁

(٢١) غزوة فتح مكة دروس وعبر.

١- سبب الغزوة.

٢- خط سير الغزوة.

٣- كيف تم فتح مكة.

٤- دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

١-سبب الغزوة:

من بنود صلح الحديبية، أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق.

فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبليتين عداوة وثأرات في الجاهلية.

فلما أمن الفريقان، أرادت بنو بكر أن تصيب من خزاعة الثأر القديم، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له الوتير، فأصابوا منهم رجالا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش، مستغلين ظلمة الليل، حتى حازت خزاعة إلى الحرم، فقال قائدهم نوفل بن معاوية

الديلي: (لا إله اليوم يا بنى بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه) وانحازت خزاعة في مكة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فدخل على النبي ﷺ في المسجد وهو جالس بين الصحابة ﵃ فقال:

يا رب إلى ناشد محمدا ⁘ حلفنا وحف أبيه الأتلدا

فقال الرسول ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: (إن هذه السحابة تستهل بنصر بني كعب). وخرج بديل بن ورقاء الخزاعي فأخبر النبي ﷺ بالخبر.

حاول أبو سفيان أن يخرج إلى المدينة، ويجدد الصلح، بعدما أحست قريش بغدرها، وخافت من العواقب، وأخبر النبي ﷺ الصحابة ﵃ بما تنتوى عليه قريش إزاء غدرتهم، فقال: (كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة).

قابل أبو سفيان بديلا بن ورقاء بعسفان وهو راجع من المدينة إلى مكة، فسأله عن مقدمه، فأنكر قدومه من المدينة، لكن أبا سفيان علم ذلك من فته لبعر راحلة بديل، فقد رأى فيها آثار نوى المدينة.

دخلت أبو سفيان المدينة فأتي بيت ابنته، أم حبيبة رملة ﵂ زوجة النبي ﷺ فطوت عنه الفراش النبوي، وقالت: أنت رجل مشرك نجس، فقال: والله لقد

أصابك بعدى شر، ثم خرج فأتي الرسول ﷺ فلم يرد عليه، ثم أتى أبا بكر ﷺ فلم يرد، ثم أتى عمر فرفض وقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم أتى علي بن أبي طالب، فطلب منه أن يشفع له عند الرسول ﷺ فرفض، فطلب النصيحة منه، فقال: قم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، ولما قدم على قريش، قالوا ما ورائك فقص عليهم الخبر، ثم قالوا ما زاد على أن لعب بك.

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة:

أمر النبي ﷺ السيدة عائشة ﵂ أن تجهزه، ولا أحد يعلم الوجهة، لا هي ولا أبو بكر ﷺ ثم أمر الناس بالتجهز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، قال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها).

وزيادة في الاخفاء، بعث النبي ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي، إلى بطن إضم، لتذهب الأخبار بذلك، ثم لحقت بالرسول ﷺ فيما بعد.

كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش، يخبرهم بمسير الرسول ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلا، على أن تبلغه قريشا، وجعلته في قرن رأسها، فأتى الخبر الرسول ﷺ عن طريق الوحي، فبعث علي بن أبي طالب ﷺ والزبير بن العوام ﷺ والمقداد بن عمرو ﷺ وأبا مرثد الغنوي ﷺ فقال: (انطلقوا حتى تأتوا-(روضة خاخ-فإن بها ظعينة معها كتاب لقريش).

فانطلقوا إليها في نفس الموضع، وضغطوا عليها حتى استخرجت الكتاب من قرن رأسها، فأتوا به رسول الله ﷺ فاستدعاه النبي ﷺ وعاتبه في ذلك، وبرر اجتهاده.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: (دعني أضرب عنقه فقد خان الله ورسوله وقد نافق) فقال الرسول ﷺ: (إنه قد شهد بدرا، وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فذرفت عينا عمر، وقال الله ورسوله أعلم.

غادر النبي ﷺ المدينة في العاشر من رمضان سنة ٨هـ. متوجها إلى مكة في عشرة آلاف من الصحابة ﷺ واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، ولما وصل إلى الجُحفة لقيه عمه العباس مسلما مهاجرا، وعند الأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من الأذى، فقالت له أم سلمة لا يكن ابن عمك، وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال عليٌّ لأبي سفيان أئته من قبل وجهه، وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ سورة يوسف: ٩١. ففعل، فقال له الرسول ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سورة يوسف: ٩٢.

واصل الرسول ﷺ سيره وهو صائم هو والصحابة ﷺ ثم واصل المسير حتى نزل بمر الظهران، فأمر الجيش فأوقد النيران عشرة آلاف نار، وجعل الرسول ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب ﷺ.

خرج العباس ببغلة الرسول ﷺ يلتمس من يرسله لقريش؛ ليستأمنوا الرسول ﷺ قبل أن يدخلها، وكان أبو سفيان قد خرج يتجسس الأخبار، فلقيه العباس ﷺ وقال: (هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله).

قال أبو سفيان: فما الحيلة؟ قال: لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فأردفه خلفه حتى يأتي به الرسول ﷺ فيستأمنه له.

فلما مرَّ بنار عمر بن الخطاب ﷺ فرأى أبا سفيان على عجز الدابة، فقال: عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، وتسابق عمر ﷺ مع العباس ﷺ إلى الرسول ﷺ فدخل العباس وأجاره.

فقال النبي ﷺ: (اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به) فلما أصبحت غدوت به إلى الرسول ﷺ فلما رأه قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئا بعد.

قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس يا رسول اللهﷺ: (إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا) قال: (نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن).

❁❁❁

٣-كيف تم فتح مكة؟.

وفي صباح اليوم التالي، أمر النبي ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي، عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيرها، ففعل، فكلما مرت قبيلة قال: من هذه؟ فيقول: فلان، فيقول: ما لي وفلان.

ومرَّ النبي ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: من هؤلاء؟ فقال هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما، قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال فنعم إذن.

كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ﷺ فلما مرَّ بأبي سفيان قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرُمة، اليوم أذل الله قريشا، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: ألم تسمع ما قال سعد؟ فقص عليه، فقال الرسول ﷺ: (بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، واليوم يوم أعز الله فيه قريشا) ثم نزاع اللواء من سعد، وأعطاه لابنه قيسﷺ وقيل بل دفعه إلى الزبير بن العوامﷺ.

طلب العباس من أبي سفيان أن يسرع إلى مكة ويحذرها، فذهب وصرخ بأعلى صوته: (يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فقامت زوجته هند في وجهة فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأخمش الساقين، قُبِّح من طليعة قوم.

فقال أبو سفيان: (ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فقالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك، قال: (ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن) فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

تجمع سفهاء قريش مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهل بن عمرو، بالخندمة ليقاتلوا المسلمين، ومعهم حماس بن قيس، من بني بكر، وقد لقيهم خالد وأصحابه بالخندمة، فناوشوهم شيئا من القتال، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلا، وانهزم المشركون ومعهم حماش بن قيس، فاعتبته زوجته، وقالت أين ما كنت تقول؟ فقال:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْت يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ ∴ إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

وَاسْتَقْبَلَتْهُمْ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَهْ ∴ يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ

ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهْ ∴ لَهُمْ نَهِيتٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ

لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ.

أقبل خالد يجوس مكة حتى وصل إلى الصفا، والزبير تقدم حتى نصب راية الرسول ﷺ بالحجون، عند مسجد الفتح، ونهض الرسول ﷺ بالمهاجرين والأنصار حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس ويقول، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ سورة الإسراء: ٨١.

كان طوافه على راحلته بدون إحرام، فلما انتهى من الطواف، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخلها، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال ﷺ: (قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط).

ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت، وصلى داخل الكعبة، ودار في البيت، وكبر في نواصيه، ووحد الله، وقريش ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب فقال:

(لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا لكل مأثره أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد – السوط والعصا – ففيه الدية مغلظة مائة من الأبل، أربعون منها في بطون أولادها).

يا معشر قريش: (إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالأباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ سورة الحجرات: ١٣.

ثم قال: (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم، قالوا خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سورة يوسف: ٩٢. قال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

طلب علي بن أبي طالب ﷺ ومفتاح الكعبة في يده، أن يجمع النبي ﷺ لهم بين الحجابة والسقاية، وقيل العباس ﷺ هو من طلب ذلك، فقال رسوله الله ﷺ: (أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له فقال له: هاك مفتاحكم يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، خذها خالدة تالدة، لا ينازعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف).

ولما حانت الصلاة، أمر النبي ﷺ بلالا أن يصعد على الكعبة فيؤذن، وقد تقوّل بعضي أسياد قريش، فأخبرهم النبي ﷺ بما قالوا، فأسلموا.

دخل النبي ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان ضحى، فظنها من ظنها أنها صلاة الضحى، وقالوا: إنما هي صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ).

أهدر النبي ﷺ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، فمنهم من شفع أحد الصحابة ﷺ له، وحقن النبي ﷺ دمه وأسلم، ومنهم من فر إلى اليمن، مثل عكرمة واستأمنت له امرأته وأسلم، ومنهم من قتل وهو متعلق بأستار الكعبة، ومنهم من أسلم بعد ما أستأمن له، فعدد المقتولين ثمانية رجال، وست نسوة.

وفر صفوان بن أميه بصفته أحد زعماء قريش، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي ﷺ فلحقه قبل أن يركب البحر إلى اليمن، وطلب مهلة شهرين فجعلها له النبي ﷺ أربعة أشهر، ثم أسلم، وكانت امرأته قد أسلمت قبله، فأقرهما النبي ﷺ على النكاح الأول.

وخطب النبي ﷺ في اليوم الثاني من الفتح، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: (أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض).

ولما فتح النبي ﷺ مكة وهى بلده ووطنه ومولده، خاف الأنصار أن يقيم بها، فقال: (معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم). وجلس النبي ﷺ على الصفا يبايع الناس على السمع والطاعة فيما استطاعوا، ثم بايع النساء، وعمر قاعد أسفل منه يبلغ عنه.

وجاءت هند زوج أبي سفيان متنكرة، مع من بايع الرسول ﷺ وهو يقرأ عليهم آخر سورة الممتحنة، وقالت هند: (يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل

خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك) قال: (وأيضا والذي نفسي بيده).

أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوما، يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، ونادى مناديه بمكة: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنما إلا كسره).

ثم أرسل النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم لكسر الأصنام التي حول مكة كلها، فبعث خالد بن الوليد إلى العزى في نخلة، وبعث عمرو بن العاص إلى سواع، وهو صنم لهزيل برهاط، وبعث سهل بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمُشلَّل.

لقد كانت غزوة فتح مكة هي المعركة الفاصلة، والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاءً تاما، وكانت القبائل تنتظر نهاية الصراع بين الإسلام والوثنية، لأنها تعلم أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق، وقد تأكد لهم ذلك من قبل في هلاك أصحاب الفيل.

ودخل بسبب هذا الفتح بشر كثير في الإسلام، وسيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني، كليهما معا، حيث وفدت القبائل العربية إلى المدينة، ليدخلوا في دين الله أفواجا، ثم كانت مرحلة جديدة للدعوة الإسلامية.

❁❁❁

٤-دروس وعبر من الغزوة:

١-احترام الإسلام للمبادئ والعهود التي هو طرف فيها إلى أقصى درجة، وهو على أتم استعداد أن يدخل في معركة مهما كانت خسائرها، إذا نقض الخصم أو العدو هذه المبادئ، ولم يلتزم بالعهود المبرمة.

فقد حدث ذلك في فتح مكة، وفي غزوة مؤتة، بسبب قتل رجل واحد مسلم يحمل رسالة، فقتله أحد الخصوم.

٢-في المعارك الفاصلة الحاسمة لابد من الاستعانة بالسرية التامة، ومباغتة الخصوم مفاجأة، حتى لا يستعدوا فتطول المعركة، أو تأخذ جهدا كبيرا لتحقيق الهدف منها، وقد وقع ذلك في فتح مكة، حيث دعا النبي ﷺ فقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها).

وأرسل النبي ﷺ ليأتي بالرسالة التي كتبها حاطب، حتى لا تعلم قريش فتستعد، فهو يريد فتحا واستسلاما دون إراقة دماء.

٣-فضل أهل بدر ومكانتهم في الإسلام، بسبب سبقهم وجهادهم، فرفض النبي ﷺ قول عمر رضي الله عنه بقتل حاطب بن أبي بلتعة، وأنه قد نافق، فقال: (وما يدريك، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). فذرفت عين عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

٤-عظم عفو النبي ﷺ وسعة رحمته، حيث قبل رأى أم سلمة رضي الله عنها في ابن عمه وابن عمته، وقالت: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، حيث عفا

عنهم، وقبل إسلامهم، وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سورة يوسف: ٩٢.

ووصفه الله بالرأفة والحمة في القرآن في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ سورة التوبة: ١٢٨.

٥-الأخذ بالرخصة في موضعها حتى ولو كانت بالإنسان قوة، حيث أفطر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم وهم على سفر، وفي جهاد، وفي الحديث: (ليس من البر الصيام في السفر).

وحتى يتقوى الإنسان على مشاق السفر، وصعوبات القتال، وهي رخصة مبيحة للفطر، وللإنسان أن يقضي ما أفطره بعد ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ سورة البقرة: ١٨٤.

٦-امتلاك القوة واستخدامها في موضعها، وسيلة من وسائل إخافة الأعداء والخصوم، فقد أذعن أبو سفيان حينما رأى هذه القوة الضاربة، عشرة آلاف مقاتل، وأمام كل واحد نارا أوقدها، وقد سبق أبو سفيان الجيش إلى مكة، فطلب منها الاستسلام، حيث لا قبل لها بهذا الجيش الإسلامي الكبير.

٧-مراعاة مقتضى الحال، فالنبي ﷺ يريد أن يفتح مكة بلا قتال، لأنها بلد حرام، وحينما وصل إليه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة، اليوم أذل الله قريشا، أخذ منه النبي ﷺ الراية وأعطاها لولده وقال: (اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، واليوم يوم أعز الله فيه قريشا). لأنه يوم تاريخي في حياة الإسلام، وتاريخ المسلمين.

٨-شدة تواضع النبي ﷺ فقد دخل مكة فاتحا منتصرا، وهم قد أذوه وأخرجوه، ولو انتقم منهم لكان له عذره، وما يبرره، لكنه دخل في أعلى صورة من صور التواضع، ولحيته تلامس ظهر بعيره، من شدة انحنائه، وتواضعه في موطن النصر والتمكين والظفر.

٩-طريق الإصلاح هو أفضل الطرق للتغيير، حيث هدم النبي ﷺ الأصنام التي حول الكعبة بأيدي المشركين أنفسهم، الذين أسلموا بعد عشرين عاما، ولو فعل ذلك في أول الدعوة ما تركوه، ولوقفوا أمامه ومنعوه، وربما قتلوه، واليوم بعد أن غير النفوس بالإسلام والإيمان، إذ بالأفراد أنفسهم الذين كانوا يعارضوه هم الذين يفعلون ذلك.

١٠-سعة عفو النبي ﷺ وهو في موطن القوة، وفي قمة النصر والنجاح والظفر، حيث وقف أمامه أهل مكة في انتظار كلمته فيهم، وهو موضع فيه فرصة للثأر والانتقام، ومع ذلك قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سورة يوسف: ٩٢. وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

١١-وفاء النبي ﷺ بالأمانة لحامل مفتاح الكعبة، حيث رفض طلب عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أن يعطيه المفتاح، ويجمع لهم بين الحجابة والسقاية، وسأل عن عثمان بن طلحة، وأعطاه مفتاح الكعبة، وقد نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ سورة النساء: ٥٨.

وقال: (اليوم يوم بر ووفاء، خذها خالدة تالدة لا ينازعها منكم إلا ظالم).

١٢-يستحب للمسلم عند النصر والأخبار السارة، أن يسجد لله سجدة شكرا، على ما هداه للتوفيق والسداد في عمله، وما أسبغ عليه من نعم الغفيرة التي لا تعد ولا تحصى.

١٣-مكانة المرأة ومنزلتها في الإسلام، إنها مثل الرجل تماما في كثير من الأحكام، مثل حق الإجارة، فقد أجارت السيدة أم هانئ رجلين، وأراد أخوها عليٌّ بن أبي طالب أن يقتلهما، فلما علم النبي ﷺ قال: (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ).

١٤-التعامل بشدة وحزم مع رؤوس الكفر، وكبار المجرمين، فقد أهدر النبي ﷺ دماء تسعة من أئمة الكفر والضلال، بسبب ما قدموه من إيذاء للنبي ﷺ والصحابة ﷺ قال: (حتى ولو وجدتموهم تحت أستار الكعبة) فمنهم من نفذ فيه الحكم، ومنهم من طُلب له الأمان، وأسلم وحسن إسلامه.

١٥-وفاء النبي ﷺ للأنصار، فبعد أن تم فتح مكة، واستقرت له الأمور، وتخوف الأنصار من بقائه في مكة، موضع نشأته ومسقط رأسه، فأعلن للأنصار في

صراحة ووضوح فقال: (المحيا محياكم والممات مماتكم). وقد كان من مفاخر المدينة، أنها موضع هجرته ومقامه، وبها مسجده وقبره الشريف، وبها مهبط الوحي، وفيها معالم كثيرة من فترة الإسلام الثانية لمدة عشر سنوات.

١٦-بايع النبي ﷺ في مكة الرجال، ثم النساء على الإسلام، والسمع والطاعة، وعلى آخر سورة الممتحنة، وأعلنت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، عما كانت عليه المرأة العربية قبل الإسلام، من صفات العفة، والبعد عن الحرام، وحادثت النبي ﷺ حتى عرفها، وأعلنت عن تحولها في عاطفتها نحو الإسلام، ونحو النبي ﷺ بعد، وأسلمت وحسن اسلامها، أصبح ولدها معاوية فيما بعد خليفة المسلمين.

١٧-انتهت الغزوة بتحقيق أكبر هدف من أهداف الإسلام، وهو هدم الأصنام والقضاء على الوثنية في مكة، والتي تحيط ببيت الله الحرام، الذي هو قبلة المسلمين في كل مكان، وكذلك تحطيم الأصنام في الجزيرة العربية، فلم يعد يعبد فيها غير الله ﷻ المستحق للعبادة والطاعة والتذلل والخضوع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة النحل: ٣٦.

❁❁❁

(٢٢) غزوة حنين دروس وعبر.

١- سبب الغزوة.

٢- خط سير الغزوة.

٣- أحداث الغزوة.

٤- دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

١-سبب الغزوة:

كانت فتح مكة ضربة خاطفة سريعة، فوجئت بها القبائل المجاورة بالأمر الواقع، ولم يمتنع عن الاستسلام إلا القبائل القوية الشرسة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، حيث رأت من نفسها عزة وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النَّصريّ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

ساق مالك معه الأموال والنساء والأطفال، وسار إلى واد في دار هوازن، بالقرب من حنين، ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دُريد بن الصمة، وهو شيخ كبير، كان شجاعا مجربا، له رأيه في الحروب والمعارك، فسأل مالك عن استعداداته للحرب، وسبب حمله للأموال والذرية، فأنكر عليه ذلك، وقال: (إن المنهزم لا يرده شيء، إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك).

واقترح عليك اقتراحا، فرفضه مالك، وقال: (والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك).

❁❁❁

٢-خط سير الغزوة:

جاءت عيون مالك بأخبار المسلمين، وقالوا: (رأينا رجالا بيضا على خيل بلق) ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو، فأرسل أبا حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، ويقيم فيها حتى يعلم خبرهم، ففعل.

خرج الرسول ﷺ من مكة في اثني عشر ألفا من المسلمين، استعار من صفوان بن أمية مائة درع بأدواتها، جاءت الأخبار للرسول ﷺ بأن هوازن اجتمعوا في حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: (تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله).

وفي الطريق إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء، تسمى ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، فقال بعض أهل الجيش ممن هم حديثي عهد بالإسلام: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) فقال الرسول ﷺ: (الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم).

وقال بعضهم انظر إلى كثرة الجيش، لن تغلب اليوم، وكان ذلك قد شق على الرسول ﷺ.

سبق مالك إلى حنين، وأدخل جيشه ليلا في الوادي، وفرق جيشه كمناء في الطريق والمداخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره، بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

❁❁❁

٣-أحداث الغزوة:

عبأ النبي ﷺ جيشه بالسحر، وعقد الألوية والرايات، وفرقها على الناس، وفي الصباح دخل المسلمون الوادي وهم لا يدرون بالأكمنة، فأمطرت عليهم النبال، وشدت عليهم كتائب الأعداء شدة رجل واحد، فتراجع المسلمون لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة.

وقال أبو سفيان بن حرب: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر الأحمر) وصرخ جبلة بن كلدة: (ألا بطل السحر اليوم).

انحاز الرسول ﷺ جهة اليمين، وهو يقول: (هلموا إلي أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله).

ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار، وثبت مع الرسول ﷺ ثمانون رجلا، كانوا على أقدامهم ولم يولوا الأدبار.

ركض النبي ﷺ ببغلته قبل الكفار وهو يقول:

أنا النبي لا كذب ∴ أنا ابن عبد المطلب

وأبو سفيان بن الحارث يأخذ بلجام بغلته، والعباس بركابه، يكفّانها ألا تسرع، ثم نزل الرسول ﷺ فاستنصر ربه قائلا: (اللهم أنزل نصرك).

رجع المسلمون، حيث نادى العباس بأعلى صوته: (أن أصحاب السمرة) قال: (فو الله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها) فقالوا: (يا لبيك يا لبيك). حتى إذا اجتمع حوله مائة، استقبلوا الناس واقتتلوا، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى، كما كانوا قبل المعركة، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة.

ثم قال النبي ﷺ: (الآن حمي الوطيس). ثم أخذ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: (شاهت الوجوه). فما خلق الله إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة، فلم يزل حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا.

وما هي إلا ساعات قلائل بعد رميِّ القبضة، حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدها نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وذرية.

ولقد أشار القرآن إلى الغزوة بقوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة التوبة: ٢٥.

ولما انهزم العدو توجهت طائفة إلى الطائف، وثانية إلى نخلة، وأخرى إلى أوطاس، فأرسال النبي ﷺ إلى أوطاس من يتتابعهم، فتناوشوا قليلا، وانهزم المشركون، وقتل القائد أبو عامر الأشعري.

وطاردت فرسان المسلمين فلول المشركين، الذين سلكوا نخلة، فأدركت دُريد بن الصمة، فقتله ربيعة بن رفيع.

ومن توجه إلى الطائف طاردهم النبي ﷺ بنفسه مع عدد من الصحابة ﷺ بعد أن جمع الغنائم.

كانت الغنائم كثيرة جدا، جمعها النبي ﷺ وجعلها في الجعرانة، ولم يقسمها حتى فرغ من الطائف.

كانت في السبي الشيماء بنت الحارث السعدية، أخت الرسول ﷺ من الرضاعة، فلما جئ بها إلى الرسول ﷺ عَّرفت له نفسها فعرفها، فأكرمها، وبسط لها ردائه، وأجلسها عليه، ثم من عليها وردها إلى قومها.

تجمعت فلول هوازن وثقيف في الطائف، مع قائدهم العام مالك بن عوف، وتحصنوا بها، فأرسل إليهم النبي ﷺ خالد بن الوليد في ألف رجل، فحاصرهم أقل من أربعين يوما، ووقعت مراماة، ومقاذفات، وقتل من المسلمين اثنا عشر رجلا بالسهام، ونصب النبُّى ﷺ المنجنيق عليهم، ووقعت شرخة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين من الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها.

وأمر النبي ﷺ بقطع الأعناب وتحريقها، فسألته ثقيف أن يدعها لله وللرحم، فتركها، ونادى مناد الرسول ﷺ: (أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر) فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلا.

ولما طال الحصار واستعصى الحصن على المسلمين، استشار النبي ﷺ نوفل بن معاوية الدِّيلي، فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

وحينئذ عزم النبي ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر النبي ﷺ عمر فأذن في الناس بالرحيل، فقالوا: نذهب ولا نفتحه، فقال: (اغدوا على قتال) فغدوا فأصابهم جراح، فقال: (إنا قافلوا غدا إن شاء الله) فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك، ولما ارتحلوا قال لهم الرسول ﷺ قولوا: (آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون) فقالوا: (يا رسول الله أدع على ثقيف) فقال: (اللهم اهد ثقيف وائت بهم).

وبعد عودة النبي ﷺ من الطائف، ورفع الحصار، مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة، لا يقسم الغنائم، يريد أن تأتي هوازن مسلمة، لكنهم تأخروا، فبدأ في توزيع الغنائم، وبدأ بالمؤلفة قلوبهم مثل أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، والحارث بن الحارث بن كلدة، فكان يعطي بالمائة من الإبل، ثم الخمسين، حتى شاع بين أن الناس أن محمدا ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

واجتمع الناس عليه وتزاحموا، حتى انتزعت رداءه، وبعد الانتهاء من سهم المؤلفة قلوبهم، قسم للناس أسهمها، فكان سهم كل رجل أربعة من الإبل، وإما أربعين شاة.

كان الهدف من القسمة في قريش وقبائل العرب تأليف لقلوبهم، ولم يعط الأنصار منها شيئا، فوجدوا في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، فأرسلوا إليه سعد بن عبادة، وكان بينهما الحوار الرائع الصريح، الذي قضى به النبي ﷺ على ما بالنفوس من وساوس، حيث قال الرسول ﷺ لسعد ومن معه: (قامَ فيهِم خطيبًا فحمِدَ اللهَ وأثنَى علَيهِ بما هوَ أهلُهُ، ثمَّ قالَ: يا معشرَ الأنصارِ ألَمْ آتِكُم ضُلَّالًا فهداكُم اللهُ، وعالةً فأغناكُم اللهُ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِكُم؟ قالوا: بلَى! قالَ رسولُ اللهِ: ألا تجيبونَ يا معشرَ الأنصارِ؟.

قالوا: وما نقولُ يا رسولَ اللهِ وبماذا نُجيبُكَ؟ المَنُّ للهِ ورسولِهِ. قالَ: واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم: جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ، ومَخذولًا فنصَرناكَ...

فقالوا: المَنُّ للهِ ورسولِهِ. فقال: أوَجَدتُم في نُفوسِكُم يا مَعشرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِن الدُّنيا تألَّفتُ بِها قَومًا أسلَموا، ووَكَلتُكُم إلى ما قسمَ اللهُ لكُم مِن الإسلامِ!! أفَلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ إلى رِحالِهِم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم؟.

فَوَالَّذي نَفسي بيدِهِ، لَو أنَّ النَّاسَ سَلَكوا شِعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا، لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ. اللَّهمَّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ. فبكَى القَومُ حتَّى أخضَلوا لِحاهُم. وقالوا: رَضينا باللهِ رَبًّا، ورسولِهِ قسمًا، ثمَّ انصرفَ وتفرَقوا).

بعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما، وفيهم رأسهم زهير بن حُرْدْ، وأبو برقان، عم الرسول ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا، وقالوا يا رسول الله إن فيما أصبت الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، وهن مخازى الأقوام:

امْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللهِ فِي كَرَمٍ ∴ فإنك المرؤ نرجوه وننتظر

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا ∴ إِذْ فُوكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دُرَرُ

فقال لهم الرسول ﷺ: إذا صليت الغداة – الظهر – فقوموا فقولوا: (إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا) ففعلوا.

فقال: (أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس). فقال المهاجرون والأنصار، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس، أما أنا وبنو تيم فلا، وقال عيينة بن حصنن والعباس بن مرداس مثل ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: (إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا، فمن كانت عنده منهن شيئا فطابت نفسه بأن يرد في سبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا).

فقال الناس: (قد طيبنا لرسول الله ﷺ). فقال: (إنّا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم). فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، ثم تراجع عن ذلك.

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من توزيع الغنائم في الجعرانة، أهل معتمرا منها، فنوى العمرة، ثم رجع إلى المدينة، لست ليال بقين من ذي العقدة سنة ٨هـ.

❁❁❁

٤-دروس وعبر من غزوة حنين:

١-الحرب مستمرة بين المسلمين وغيرهم، فإذا كانت مكة قد استسلمت، وتم فتحها، فإن هوازن وثقيف رفضت الاستسلام، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك في قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ سورة البقرة: ٢١٧.

فقد يقاتلون كبرًا وحمية وأنفة، ورفضا للاستسلام للإسلام والمسلمين، ولا يردعهم إلا مباشرة الحرب وهزيمتهم، حينئذ لا تكون لهم حيلة إلا الاستسلام طوعا أو كرها.

٢-التحذير من مداخل الشرك بين المسلمين، خاصة ممن هم حديثي عهد بالإسلام، أو عاش خارج أرض الإسلام، ولم يعرف عن الإسلام إلا القليل، فقال أحدهم: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط).

فكان رد النبي ﷺ حاسما، فقال: (اللهُ أكبرُ إنها السننُ قلتم والذي نفسِي بيدِه كما قالت بنو إسرائيلَ لموسَى: اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ؛ لتركَبُنَّ سنَنَ مَن كان قبلَكم). واغلق الباب أمام كل منافذ الشرك والوثنية، فالإسلام دين كامل شامل، لا يحتاج إلى إضافة أو حذف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ سورة المائدة: ٣.

٣-تحذير المسلين من الركون إلى العدد في الجيش، أو الاعتزاز بالكثرة، فحينما ركن بعضهم إلى ذلك جاءت الهزيمة، ومن الثوابت في تاريخ المعارك في الإسلام، أن المسلمين ينتصرون بالدين الذي يحملونه، والتوفيق والمدد الإلهي.

وأما العدد والعتاد فعلى قدر المستطاع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ سورة الأنفال: ٦٠.

٤-الحذر الشديد في التعامل مع الأعداء والخصوم في بداية المعركة، وإرسال الطلائع والعيون منعا من الأكمنة التي في الطريق، وحتى لا يتكرر الخطأ مرة أخرى، وإن المعارك ليست ببدايتها، وإنما بنهايتها، وتحقيق أهدافها عند كل فريق، حيث كانت الجولة الثانية للمسلمين، وفرَّ المشركون وتتبعهم المسلمون حتى قضوا عليهم، أو حاصروهم، أو استسلموا.

٥-أهمية دور القائد في سير المعركة وثباته، وتطوير الخطة من الفرار إلى العودة إلى ساحة القتال، ورفع الروح المعنوية، وعدم فراره واستسلامه، وتجمع الناس حوله، وممارسة النزال والقتال من جديد، كل ذلك له دوره وأهميته في إدارة المعارك، وتحويل مجرياتها من هزيمة منكرة، إلى نصر ساحق مبين.

٦-أهمية الدعاء وقت المعركة، وعند التقاء الصفوف، فالنبي ﷺ كان دائما في معاركه يُلح على الله ﷻ في الدعاء بالنصر في بدر، وأحد، والأحزاب، وخيبر، وحنين، فالنبي ﷺ قال هنا في الكرة على المشركين: (اللهم أنزل نصرك) ودعا عليهم فقال: (شاهت الوجوه). وفي القرآن الكريم نزل قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ سورة التوبة: ٢٦.

٧-المسلمون يقاتلون لإحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، وأما الغنيمة فذلك باب من أبواب الرزق، يجعله الله نافلة للمسلمين، فينبغي أن لا يحرص عليها المسلم، أو يقاتل من أجلها، أو يتعلق قلبه بالعطاء منها، وإنما يتجرد في قتاله لله وحده. فلقد كانت سببا للخلاف في بدر، وسببا من أسباب انقلاب الموازين في أحد، بعد أن حقق المسلمون النصر في الجولة الأولى، وكانت سببا لأن يجد بعض الصحابة ﷺ في نفسه شيئًا، حيث أعطى النبي ﷺ عطاءً كبيرا للمؤلفة قلوبهم، ووكل الباقي إلى ما في قلوبهم من إيمان، وقد جمع النبي ﷺ الصحابة ﷺ وخطبهم، وبين لهم سر التوزيع وحكمته، حتى بكى الصحابة ﷺ من الأنصار وقالوا:

(رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا) وفازوا بدعوة النبي ﷺ لهم ولذرياتهم، حيث قال: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

٨-وفاء المسلمين في عهودهم، حيث أمَّنوا من نزل إليهم من الحصن، وأعطوهم حريتهم، فالمسلمون هنا لا يمثلون أنفسهم وذواتهم، وإنما يمثلون الدين الذي يحملونه، والمبادئ التي ينادون بها، ويسعون إلى تطبيقها.

٩-على المسلم أن يتبع هدى النبي ﷺ واختياره فيما يختاره له، فإن فيه الخير والبركة، فحينما اختار رفع الحصار، شعر الصحابة ﷺ بعدم الراحة، كيف يحاصرون الأعداء هذه المدة دون أن يهاجموهم؟ فلما هاجموهم رشقوهم بالنبل، فقال لهم النبي ﷺ: (إنا غدا قافلون). فسروا بذلك وأذعنوا.

١٠أعطى النبي ﷺ في توزيع الغنائم عطاء كبيرا، عطاء من لا يخشى الفقر، فأعطى للمؤلفة قلوبهم مئات من الإبل والغنم والمال، ولم يعط الأنصار، ولما تحدثوا في الموضوع، عالج القضية بصورة رائعة وحاسمة.

فخاطب الأنصار بما يحملون في قلوبهم من إيمان وحب لله ورسوله ﷺ فقال: (أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير، وترجعون أنتم برسول الله، ثم بين لهم مكانتهم ومنزلتهم عنده من الحب فقال: والله لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ثم خصهم وذريتهم بالدعاء فقال: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار) فقالو رضينا برسول الله قسما وحظا.

❁❁❁

(٢٣) غزوة تبوك دروس وعبر.

١. سبب الغزوة.

٢. استعدادات المسلمين وخط سير الغزوة.

٣. الجيش الإسلامي إلى تبوك.

٤. دروس وعبر من الغزوة.

❁❁❁

١-سبب الغزوة:

لم تنجح معركة مؤتة في أخذ الثأر من أولئك الظالمين من الروم، وإن كانت تركت أثرا كبيرا في نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم.

وما كان لقيصر الروم أن يغض طرفة عن هذه القوة النامية التي تعرضت لجيشه في مؤته، فهي خطر يتقدم نحو حدوده خطوة خطوة، فهو يرى أهمية سرعة القضاء على قوة المسلمين في مهدها، قبل أن تثير القلائل في القبائل العربية التابعة له.

بعد معركة مؤتة بسنة واحدة، بدأ قائد الروم يجهز جيشه مع جيوش العرب التابعة له من الغساسنة، ووصلت الأخبار إلى المدينة بتجهيزات الروم لمعركة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، كما ذكر ذلك ابن الخطاب ﷺ فيقول: (فقد امتلأت صدورنا منه).

وهذا يدل على خطورة الموقف الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان، كما أن المنافقين وجدوا في ذلك فرصة لهم، فبنوا مسجد الضرار، ليكون تفريقا بين المؤمنين، وانشغل النبي ﷺ عنه بالاستعداد للغزوة، ولما عاد فضحهم الله ﷻ أمر النبي ﷺ بهدمه.

كانت الأخبار تصل من الركبان إلى المدينة بأخبار جيش هرقل، مع بعض متنصرة العرب، من لخم وجذام وغيرهما، كما أن الوقت كان فصل قيظ شديد، والناس في عسرة وجدب، وقلة من الظهر، وقد طابت الثمار، والناس يحبون المقام في الظلال والثمار، لكن النبي ﷺ كان ينظر إلى الأمر بموضوعية كبيرة، فهو يرى أن التكاسل عن مواجهة الروم في تلك الظروف الحاسمة، وعبث الرومان في المنطقة التي تحت سيطرة الإسلام، وزحف الروم إلى المدينة، فسوف يكون له أسوأ الأثر على سمعة المسلمين العسكرية.

كما أن المشركين بعد ضربة حنين سوف يحيون من جديد، والمنافقون يتربصون بالمسلمين الدوائر، وعلى صلة بملك الروم، وسوف يطعنون المسلمين من الخلف، كل ذلك يشكل خطرا على المسلمين، لذا قرر النبي ﷺ القيام بمعركة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الروم في حدودهم، قبل أن يزحفوا إلى ديار الإسلام في المدينة.

لما قرر الرسول ﷺ الموقف، أعلن الرسول ﷺ في الصحابة ﷺ أن يتجهزوا، وبعث إلى مكة والقبائل العربية يستنفرهم، وحدد وجهته إلى تبوك، على عكس ما

سبق من غزوات، فكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها، لكنه هنا أعلن بوضوح، نظرا لخطورة الموقف من الشدة والعسر ولقاء الرومان، ليأخذ الناس استعداداتهم، ونزلت آيات من سورة براءة، تحثهم على القتال، وتحرضهم على الانفاق.

❁❁❁

٢-استعدادات المسلمين وخط سير الغزوة:

حينما سمع المسلمون صوت الرسول ﷺ يدعوهم إلى قتال الروم، حتى تسابقوا للاستعداد للقتال بسرعة بالغة، وجاءت القبائل إلى المدينة من كل صوب وحدب، ولم يتخلف عن الغزوة إلا المنافقون، وثلاثة من الصحابة ﭫ عرفوا فيما بعد بالمخلفين، وكان أهل الحاجة والفاقة يجيئون إلى النبي ﷺ ليحملهم إلى قتال الروم، فكان يعتذر لهم بقلة الإمكانات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ سورة التوبة: ٩٢.

لقد تسابق المسلمون في الانفاق، وبذل الصدقات، وضرب المسلمون أروع الأمثلة في ذلك، بلغ مقدار ما تصدق به عثمان بن عفان ﭬ تسعمائة بعير، ومائة فرس، سوى النقود، حتى قال فيه الرسول ﷺ: (ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم) وجاء أبو بكر الصديق ﭬ بماله كله، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله، وكانت أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بن الخطاب ﭬ بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف ﭬ بمائتي أوقية فضة، وجاء العباس ﭬ بمال كثير، وجاء طلحة بن عبيد الله ﭬ وسعد بن عبادة ﭬ ومحمد بن مسلمة ﭫ بمال، وتتابع الصحابة ﭫ بصدقاتهم.

وجاءت النساء بصدقاتهن، ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة التوبة: ٧٩.

❁❁❁

٣-الجيش الإسلامي إلى تبوك:

استعمل النبي ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة ﷺ وخلَّف على أهله علي بن أبي طالب ﷺ وأمره بالإقامة فيهم، وغمص عليه المنافقون، فلحق بالرسول ﷺ فرده، وقال: (ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي).

كان جيش المسلمين ثلاثين ألف مقاتل، لم يخرج في مثل هذا الجمع قبله، ولم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوا الجيش كاملا، بل كان هناك قلة في الزاد والمركب، فكان كل ثمانية عشر رجلا يتعقبون بعيرا واحدا، وأكل بعضهم ورق الشجر، واضطروا إلى ذبح بعض البعير ليشربوا ما في كرشه من ماء، لذلك سميت غزوة العسرة.

مرَّ الجيش في طريقه بديار ثمود، فاستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال الرسول ﷺ: (لا تشربوا من مائها، ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا).

وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت ترد ناقة صالح، وقال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين) ثم رفع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي.

اشتدت حاجة الجيش إلى الماء، حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ فدعا الله فأرسل سحابة فأمطرت، حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجاتهم منه.

لما اقترب من تبوك قال ﷺ: (إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يلامس من مائها شيئا حتى آتي) فسبق رجلان من الجيش، والعين تبض بشيء من مائها، فسألهما: (هل مسستم من مائها شيئا؟ قالا نعم: وقال لهما ما شاء الله أن يقول).

ثم غرف من العين قليلا حتى اجتمع الوشل – أي مثل الماء الذي يرشح من الجبل – ثم غسل فيه وجهه ويده، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس ثم قال: (يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانا).

ولما بلغ الرسول ﷺ تبوك قال: (أتهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله). فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ.

الجيش في تبوك: نزل الجيش في تبوك، وعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبا، وحض على خير الدنيا والآخرة، ورفع معنوياتهم، وجبر ما كان فيها من النقص، من قلة الزاد والمادة والمؤنة.

وأما الرومان لما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، وتفرقوا في البلاد في داخل حدودهم، وكان له أثره في سمعة المسلمين داخل الجزيرة وما حولها.

جاء يوحنا صاحب أيلة فصالح الرسول ﷺ وأعطاة الجزية، وكذلك بعض المدن المحيطة به، وكتب لهم النبي ﷺ كتابا للصلح والجزية هم وغيرهم من جاءوا إليه.

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في أربعة وعشرين فارسا إلى أكيدر دومة الجندل، فقال إنك ستجده يصيد البقر، فأتاه خالد بن الوليد، ووجده كما قال الرسول ﷺ فأتى به إلى الرسول ﷺ فحقن دمه، وصالحه وأقر بإعطاء الجزية.

علمت القبائل التي كانت تعمل لصالح الرومان من قبل، أن اعتمادها عليهم قد فات، فانقلبت لصالح المسلمين، فتوسعت حدود الدولة الإسلامية.

رجع الجيش من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيدا، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

وعند الرجوع حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ وهو يمر بالعقبة، وكان معه عمار بن ياسر رضي الله عنه يقود زمام ناقته، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يسوقها،

فسمع النبُّى وكزة القوم من ورائهم وهم متلثمون، فبعث النبي ﷺ حذيفة، فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر النبي ﷺحذيفة بأسمائهم، فكان يسمى (بصاحب سر رسول الله ﷺ).

وفي ذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة التوبة: ٧٤.

وعندما اقترب النبي ﷺ من المدينة، لاحت معالمها من بعيد، فقال: (هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه). وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولدان يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ∴ مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ∴ مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ

كانت العودة من تبوك في رجب سنة ٩هـ، واستغرقت الغزوة خمسين يوما، أقام منها عشرين يوما في تبوك، والباقي قضاها في الطريق ذهابا وعودة، وكانت آخر غزواته.

وأما المخلفون فقد خرج لهذه الغزوة من كان مؤمنا صادقا، وما تخلف عنها إلا منافق، وإذا ذكر أحد المخلفين للرسول ﷺ قال: (دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه).

فالمخلفون كانوا ما بين منافق أو من حبسه العذر، أو قعدوا ولم يستأذنوا من الرسول ﷺ ومنهم ثلاثة كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أهية، فحينما دخل الرسول المسجد صلى ركعتين، وجلس للناس، فأما المنافقون فكانوا بضعة وثمانين رجلا، جاءوا بأعذار شتى، وطفقا يحلفون، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما الثلاثة السابقون فقد صدقوا مع الله، فأمر النبي ﷺ بمقاطعتهم، فتغير لهم الناس، وتنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، حتى تمت مدة المقاطعة خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ ﴾ سورة التوبة: ١١٨.

فرح المسلمون بذلك، وكان أسعد يوم من حياتهم، وتصدقوا ببعض أموالهم،

وأما الذين حبسهم العذر فنزل فيهم قوله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ ﴾ سورة التوبة: ٩١.

وقال النبي ﷺ حينما اقترب من المدينة: (إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر). قالوا يا رسول الله: وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة).

نزل القرآن الكريم حول موضوع الغزوة، في سورة براءة، منها ما قبل الخروج وأثناء الطريق، وما بعده عند الرجوع، وفضح القرآن الكريم المنافقين، وفضل المجاهدين، وقبل التوبة من المؤمنين الصادقين المخلفين بعذر، وقد تميزت سورة التوبة بالحديث المفصل عن الغزوة ومعالمها البارزة، في أغلب أحداثها.

❁❁❁

٤-دروس وعبر من الغزوة:

١-أبرزت هذه الغزوة قوة المسلمين ونفوذهم في الجزيرة العربية، فعلم الناس أن المسلمين هم القوة الوحيدة التي تستطيع أن تعيش في المنطقة، وتبسط نفوذها حولها، وخابت آمالهم في الرمان، فقد استكانوا، واستسلموا للأمر الواقع، حيث فر الرومان من المواجهة، ولم يبق أمام القبائل سوى التوجه إلى الإسلام.

٢-لم يعد المسلمون يعاملون المنافقين بالرفق واللين، وإنما أمر الله نبيه ﷺ بالتشديد عليهم، وعدم قبول صدقاتهم، والصلاة عليهم، والاستغفار لهم، والقيام على قبرهم، وهدم مسجد الضرار، الذي جعلوه وكرا للدسائس والتآمر على المسلمين، وأنزل فيهم آيات فضحت أمرهم، ولم يبق في معرفتهم أي خفاء عما كانوا عليه من قبل.

٣-تتابعت الوفود والقبائل العربية بصورة مكثفة إلى المدينة، تعلن إسلامها، ودخولها في الدين الخاتم، خاصة بعد فرار الرومان من مواجهة الجيش الإسلامي في تبوك، فأصبح المسلمون هم القوة الوحيدة الضاربة في المنطقة وما حولها.

٤-يقظة الاستخبارات النبوية بالمدينة، فكانت تتابع الأخبار والتحركات في الجزيرة العربية وما حولها، وترصد أي تجمعات تقصد الإسلام أو المدينة، وسرعة اتخاذ القرار النبوي الرشيد، في الاستعدادات والتجهيزات والسير إلى العدو في أرضه، وبهذه القوة والعدد الذي لم يسبق له مثيل من قبل، مما كان له الأثر الفعال في هروب العدو من المواجهة، وغرس الرعب في نفوس القبائل التابعة له.

٥-كان الصحابة ﷺ على أعلى درجة في الامتثال، من سرعة الاستجابة، والتبرعات بالقليل والكثير، والتضحية بالراحة، والبقاء في الظل، وجنِّى الثمار، والاستنفار في الحر الشديد، وقلة الزاد، وبعد المسافة، ولم يتخلف عن الغزوة إلا منافق، أو صاحب عذر شرعي من الضعفاء والمرضى والفقراء، والثلاثة المخلفين، الذين خلفهم النبي ﷺ لحكم الله ﷻ.

٦-الوضوح والصراحة في إعلان الوجهة، فنظرًا لصعوبة المعركة، وما يحتويها من مشاق، وما يقابلها من صعوبات، أعلن النبي ﷺ جهة المعركة، على خلاف المعتاد، حتى يستعد كل صحابي بأن يجهز نفسه، وأن يتحمل المشاق، وأن يصبر ويصابر حتى يحكم الله بينهم وبين عدوهم، فكانت اختبارا للهمم، وامتحانًا للعزائم، وابتلاءً للإيمان، لما في النفوس والقلوب.

٧-موقف النبي ﷺ الواضح والصريح من ديار قوم ثمود، فأمر الصحابة ﷺ أن يمروا سريعا، ولا يستخدموا من مياه آبارهم شيئا، إلا من بئر الناقة فقط، وهذا حكم شرعي، يجب على المسلم أن يلتزم به، ولا يجعل هذا الموضع مزارا للمشاهدات، ومعلما من معالم الأثار، التي تزار للمتعة والتأمل في آثار السابقين، فقد قال عن ثمود، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ سورة النجم: ٥١.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة فصلت: ١٧. فينبغي الوقوف عند حدود الشرع، دون تجاوز أو اعتداء.

٨-أكرم الله نبيه ﷺ في هذه الغزوة بعدة معجزات، هي من دلائل النبوة، وبابا من أبواب إكرام الله لنبيه ﷺ في إفراج الشدة، وكشف الضيق، وتخفيف العنت والمشقة الذي أصاب الصحابة ﷺ من قلة الإمكانات، وطول الطريق، وشدة الحر، وكان هذا مما يزيد الصحابة ﷺ إيمانهم على إيمانا بالله وبرسوله، وبالرسالة التي يحملوها.

٩-ظهر في هذه المعركة سلاح الرعب، الذي قذفه الله في قلوب الأعداء، فتفرقوا في البلاد، دون مواجهة مع جيش المسلمين، وهذا السلاح من خصوصية النبي ﷺ وفي الحديث: (نصرت بالرعب مسيرة شهر). كما أن المسلمين ينتصرون بالدين الإسلامي الذي يحملونه في قلوبهم وصدورهم، وما العدد والعتاد إلا مباشرة للأسباب المادية فقط.

١٠-إذا كانت الغزوة قد كشفت عن قوة المسلمين الضاربة في الجزيرة العربية، فقد كان من نتائجها أن دخلت القبائل في الإسلام، ومن بقي منهم على النصرانية قبلوا دفع الجزية، وكشفت عن عدد المنافقين، وحقيقة ما يضمرونه من بغض للإسلام، وما يقومون به من أعمال، ظاهرها الخير، وباطنها الشر، مثل مسجد الضرار الذي أمر النبي ﷺ بهدمه، وكشفت عن أصحاب الأعذار الحقيقية، وأصحاب الأعذار المختلفة.

وأما الثلاثة المخلفين فقد عاقبهم النبي ﷺ بعقوبة جديدة، لم يعرفها الناس من قبل، حيث تركهم أحرارا طلقاء، وعزل الناس عنهم؛ وأمر زوجاتهم بأن تعتزلهم، وكانت هذه العقوبة شديدة وصعبة.

وقد صورها القرآن الكريم تصويرا رائعا، يعبر عن الضيق الذي وصلوا إليه، والبلاء الذي نزل بهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ سورة التوبة: ١١٨.

❁❁❁

(٢٤) دروس من حجة الوداع.

١- قصد الصحابة صحبة النبى ﷺ فى الحج ليتعلموا منه المناسك.

٢- استعدادات النبى ﷺ لأداء المناسك.

٣- خطبة حجة الوداع والدروس المستفادة منها.

❁❁❁

١- قصد الصحابة صحبة النبى ﷺ فى الحج ليتعلموا منه المناسك.

١- في السنة العاشرة من الهجرة، بعد أن أكمل الله الدين، وبلغ النبى ﷺ الرسالة على أحسن وجه، شعر النبى ﷺ بقرب أجله، فعزم على أداء فريضة الحج، فقصده جمع كبير يزيد على مائة ألف من المسلمين، ليأخذوا عنه المناسك مباشرة، وكذلك لعلهم لا يلقونه بعد هذا العام، وقد قال النبى ﷺلمعاذ حين بعثه إلى اليمن سنة عشر من الهجرة: **"يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، ولعلك تمر بمسجدى هذا وقبرى، فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله ﷺ"** الحديث ذكره الإمام الهيثمي في المجمع ١٩/٣ ورجاله ثقات، عن معاذ بن جبل ﷺ.

٢- كذلك أراد الله أن يظهر لنبيه ثمرة دعوته، التى تحمل في سبيلها المتاعب والمشاق، فاجتمعت حوله أطراف القبائل، ليأخذ منهم الشهادة، بأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، لقد بدأ الإسلام بفرد واحد، هو الرسول ﷺ والآن بعد ثلاث وعشرين سنة من البعثة حوله مايزيد على مائة ألف من المسلمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

سورة البقرة الآية (١٤٣).

٢- استعدادات النبى ﷺ لأداء المناسك.

١- استعد النبى ﷺ لأداء المناسك، حيث اغتسل، وتطيب، ولبس إزاره ورداءه، وأعد الهدى، وبيت النية بالعمرة والحج وقرن بينهما، وقطع الطريق من المدينة إلى مكة في ثمان ليال، ودخل البيت الحرام، وطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يتحلل ثم ذهب إلى عرفة.

وقام في هذا العدد الضخم خطيبا بهذه الخطبة الجامعة، التى أوضح فيها أمورا كثيرة تتعلق بحاضر المسلمين ومستقبلهم.

٢- بدأ النبى خطبته بتبديد ما بقى من مخلفات الجاهلية في نفوس الناس، ثم أعطى للأمة وصيته قبل الوداع، كما يعطى الوالد وصيته لولده، قبل أن يودعه في السفر، وهذا يبين شفقة الرسول ﷺ ورحمته بأمته، فأوضح لهم الطريق المستقيم حتى لا ينحرفوا عنه.

❁❁❁

٣- خطبة حجة الوداع والدروس المستفادة منها.

١ - ابتدأ النبى ﷺ خطبته بقوله: **"أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا"**.

ثم بدأ بحرمة الدماء والأموال فقال: **"إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"** الحديث ذكره الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٧٥/٣ بإسنادين رجال أحدهما صحيح، عن أبي مالك الأشعري ﷺ.

فنتعلم من ذلك أن الإسلام هو أول من دعا إلى حماية الحقوق الخاصة، من الدماء، والأموال، والأعراض، فالإسلام حفظ الحرمات وصانها. وفي الحديث قال ﷺ: **"كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"** جزء من حديث أخرجه الإمام أبو مسلم (٢٥٦٤٢) أبو هريرة ﷺ.

وقال ﷺ: **"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"** الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٤٨٤) عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

فالإسلام سد أبواب الظلم، والجور، والعنف، والتعدى على الآخرين، فالدماء مصونه، والأموال محفوظة، والأعراض مأمونة. فما كان بين الناس من أعمال الجاهلية من تعد، ونهب، وسرقة، وقتل، كل ذلك نهى عنه الإسلام وحرمه تحريما قاطعا إلى يوم القيامة.

فالمسلمون الذين يعيشون في الغرب يجب أن يشعر الناس نحوهم بالأمان، وأن يكونوا وسيلة للبناء والتعمير، لا للهدم والتخريب، وأن يكونوا قدوة حسنة

للآخرين بأخلاقهم، وأعمالهم، فهم سفراء الإسلام في الغرب، وهم نيابة عن النبى محمد ﷺ والصحابة، والسلف الصالح.

٢- ركز النبى ﷺ في خطبته الجامعة في حجة الوداع على تحريم الربا فقال: **"وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله"** جزء من خطبة الوداع ذكرها الألباني في صحيح الجامع (٢٠٦٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

لماذا ركز النبى على تحريم الربا؟ لأنه مرض عضال، يزيد الغنى غنًى، ويزيد الفقير فقرا، ليس فيه مجال للرحمة بالفقراء أو المحتاجين، وهو من الكبائر الموبقات، لذلك حرم الإسلام التعامل به مع المسلم وغيره، حتى يبقى المجتمع مستقرا اقتصاديا،وهذا أيضا ما أكدته الدراسات الغربية الحديثة.

٣- الوصية بالنساء حيث قال ﷺ: **"فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف"** المصدر السابق.

فبين النبىﷺ حق الرجل على المرأة، والمرأة على الرجل، فالمرأة أمانة في عنق الرجل، لها حقوقها، وعليها واجباتها، ومن ثم يجب أن تكون العلاقة مع المرأة مضبوطة بضوابط الشرع والدين، وليست قائمة على الهوى.

٤- دستور الأمة هو القرآن والسنة، حيث قال ﷺ: **"وقد تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى"** المصدر السابق.

فوضح النبى هنا المرجعية للأمة من بعده، حتى لا تنحرف عن طريقها أو غايتها، فالأمة بخير مادامت متمسكة بتعاليم القرآن والسنة في كل أمورها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾سورة الأنعام الآية (١٥٣).

٥- أوضح النبى ﷺ الطريق إلى الجنة فقال: **"أيها الناس لا نبى بعدى، ولاأمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم"** جزء من خطبة الوداع ذكرها الألباني في صحيح الجامع (٢٠٦٨) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ سورة الأنبياء الآية (٩٢).

إن طريق الوصول إلى الجنة مبنى على الإيمان بالله وحده، وعبادته، وأداء الأركان والفرائض على أحسن وجه، والتحلى بمكارم الأخلاق في التعامل مع الآخرين، وأى خروج عن ذلك إنما هو انحراف عن الطريق المستقيم.

٦- تحذير الأمة من اتباع الشيطان، حيث قال ﷺ: **"ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ولكن ستكون له طاعة فيما تحقرون من أعمالكم فسيرضى به"** المصدر السابق.

فالعدو الأول للمسلم في الحياة هو الشيطان، وبينه وبين البشر- صراع طويل، وهذا تحذير شديد للمسلم من الوقوع في عبادته، أو طاعته في صغائر الأعمال. قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ سورة فاطر الآية (٦).

وجاء التحذير القرآني من اتباع خطواته، لأنها تؤدي في النهاية إلى عاقبة وخيمة، ونهاية أليمة لا محالة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سورة النور الآية (٢١).

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتبعين لتعاليم القرآن والسنة.

السائرين على هدي النبي ﷺ في كل أعمالنا.

❁❁❁

(٢٥) وفاة الرسول ﷺ.

١- طلائع التوديع للحياة.

٢- مرض الموت والاحتضار والوفاة.

٣- دروس وعبر من الوفاة.

❁❁❁

١- طلائع التوديع للحياة.

في السنة الأخيرة من حياته ﷺ بدأت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع في مشاعره، وتتضح في عباراته وأفعاله، منها:

في رمضان في السنة العاشرة اعتكف ﷺ عشرين يوما، بينما فيما سبق كان يعتكف عشرة أيام فقط.

تدارسه ﷺ جبريل القرآن مرتين، في حين الأعوام السابقة كان يتدارسه مرة واحدة.

في حجة الوداع صرح في بداية الخطبة فقال ﷺ: (إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدا). وكذلك وهو عند جمرة العقبة قال ﷺ: (خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا).

أنزل الله على نبيه ﷺ سورة النصر في أواسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعيت إليه نفسه.

في أوائل صفر من السنة الحادية عشرة، خرج ﷺ إلى أحد فصلى على الشهداء، كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال ﷺ: (إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها).

خرج ﷺ في منتصف الليل إلى البقيع، فاستغفر لهم وقال: (السلام عليكم يا أهل المقابر، ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتابع آخرها أولها، والآخرة شرٌّ من الأولى، إنا بكم للاحقون).

❁❁❁

٢- مرض الموت والاحتضار والوفاة:

بداية المرض: في اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ، وكان يوم الاثنين، شهد الرسول ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون أثرها في العصابة التي تصعب بها رأسه.

صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض أحد عشر يوما، وكانت أيام المرض كلها أربعة عشر يوما.

الأسبوع الأخير: شغل رسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: (أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟) ففهمن مراده، فأذن له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة ﵂ يمشي بين الفضل بن عباس ﵁ وعلى بن أبي طالب ﵁ عاصبا رأسه، تخط قدماه

حتى دخل بيتها، فقضى عندها أخر أسبوع في حياته، فكانت تقرأ بالمعوذات والأدعية المأثورة، وتنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام: وفي يوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، ارتفعت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع وغميَّ، فقال: "هريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتى،، حتى أخرج للناس، فأعهد إليهم" فأقعدوه في إناء، وصبوا عليه الماء حتى قال: "حسبكم حسبكم".

عندما أحس بخفة في بدنه، دخل المسجد متعطفا ملحفة على منكبيه، وعصب رأسه ﷺ وجلس على المنبر، وكان آخر مجلس له، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس إنَّ) فثابوا إليه، فقال: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقالﷺ: (لا تتخذوا قبري وثنا يعبد).

وعرض نفسه للقصاص فقالﷺ: (من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا، فهذا عرضي فليستقد منه).

ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى، فقال رجل: (إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال ﷺ: أعطها يا فضل، ثم أوصى بالأنصار خيرا، فكان مما قاله: (إن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم).

ثم قال: (إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عنده). فبكى أبو بكر ﷺ وقال: (فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له) فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر ﷺ أعلمنا.

ثم قال رسول الله ﷺ: (إن من أمّن الناس على في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذ خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقى في المسجد باب إلا سُد، إلا باب أبي بكر).

قبل الوفاة أربعة أيام: ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام اشتد به الوجع، فقال: (هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوه بعدي) فاختلف رجال في البيت فيهم عمر، فقال عمر: (قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله) فاختلف أهل البيت واختصموا، فلما كثر اللغط والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: (قوموا عني).

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: (أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وأما الثالثة، فلعله الاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو الصلاة، وما ملكت أيمانكم).

وفي يوم الخميس هذا: كان النبي ﷺ يصلي بالناس جميع الصلوات، رغم شدة مرضه، فصلى في المغرب المرسلات عرفا، وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد، فسأل عائشة ﵂ عن صلاة الناس، فقالت: لا وهم ينتظرونك، فاغتسل وذهب يقوم فأغمى عليه، ثم أفاق، ثم سأل عن صلاة الناس،

ووقع له إغماء ثان وثالث، فأرسل إلى أبي بكر أن يصلى بالناس، فصلى سبع عشرة صلاة أخرها فجر الاثنين، وراجعت عائشة ﵂ النبي ﷺ ليصرف الامامة عن أبي بكر، حتى لا يتشاءم به الناس، فأبى وقال: (إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس).

قبل ثلاثة أيام: قال جابر سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: (ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله).

قبل يوم أو يومين: في يوم السبت أو الأحد، وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رأه أبو بكر ﵁ ذهب ليتأخر، فأومأ إليه ألا يتأخر، قال: (أجلساني إلى جنبه) فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر ﵁ يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ويسمع الناس بالتكبير.

قبل يوم من الوفاة: في يوم الأحد أعتق النبي ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل أرسلَتْ عائشةُ ﵂ بِمصباحٍ لها إلى امرأةٍ من نسائِها فقالتْ: (أهْدِي لنا في مصباحِنا من عكتك السمنَ، فإنَّ رسولَ اللهِ أمْسَى في جديدِ الموتِ) وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من الشعير.

آخر يوم في الحياة: روى أنس بن مالك ﵁: (أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر يصلي بهم، لم يفاجئهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة ﵂ فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص

أبو بكر ﷺ على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر. ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة ﷺ: فسألنا عن ذلك أي فيما بعد – فقالت سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفى فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت، وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يغشاه، فقالت: واكراب أبتاه، فقال لها: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم).

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وجعل الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر، حتى كان يقول: (يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهري من ذلك السم).

وقد طرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك، وكان آخر ما تكلم به، وأوصى به الناس قوله ﷺ: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد – يحذر ما صنعوا – لا يبقين دينان بأرض

العرب). وأوصى الناس فقال: (الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم) كرر ذلك مرارا.

الاحتضار: حينما حضر وقت الوفاة والاحتضار، أسندته السيدة عائشة ﵂ إليها وكانت تقول: (إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفى في بيتي، وفي يومي وبين سحري ونحري). وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، حيث كان أخوها عبد الرحمن دخل عليها ومعه سواك، فرأت النبي ﷺ ينظر إليه، فأخذته وأصلحته له، فأخذه واستاك به، وجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح به وجهه ويقول: (لا إله إلا الله، إن للموت سكرات).

وبعد أن فرغ من السواك رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة ﵂ ويقول: (مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى) كررها ثلاثا ومالت به، ولحق بالرفيق الأعلى.

إنا لله وإنا إليه راجعون، ووقع ذلك عندما اشتد وقت الضحى في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ه، وقد تم له ثلاث وستون سنة، وزادت أربعة أيام.

تفاقم الأحزان على الصحابة ﵃: تسرب النبأ الفادح، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها، قال أنس ﵁: (ما رأيت يوما قط، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ وما رأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ).

ولما مات رسول ﷺ قالت فاطمة ﷺ: (يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه).

موقف عمر وأبى بكر ﷺ: أما عمر فقد صدم صدمة شديدة، حتى قال: (إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله، ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات).

وأما أبو بكر ﷺ فاقبل على فرس من مسكنه، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ﷺ فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حِبَرَةً، فكشف عن وجهه ثم اكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: (بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك، فقد متها)

ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر فأبى أن يجلس، فتشهد أبو بكر ﷺ فأقبل الناس إليه، فقال: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ سورة آل عمران: ١٤٤.

قال ابن عباس ﷺ: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ﷺ فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها).

قال ابن المسيب، قال عمر ﷺ: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت أنه الحق، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض، حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات).

التجهيز وتوديع الجسد الشريف: وقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه، فجرت مناقشات ومجادلات، وحوار بين المهاجرين والأنصار، في سقيفة بنى ساعدة.

وأخيرا اتفقوا على خلافة أبي بكر ﷺ ومضى الإثنين وهم مشغولون، ودخل الثلاثاء، وغسلوا رسول الله من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان يغسله العباس وعلي ﷺ وبعض أقاربهم، وغُسل ثلاث غسلات بماء وسدر، ومن بئر يقال لها الفرس، لسعد بن خيثمة بقباء، كان يشرب منها، وكفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض، سَحُولية من كرسف.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر ﷺ إني سمعت رسول الله يقول: (ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض) فحفر أبو طلحة تحته، وجعل القبر لحدا.

دخل الناس الحجرة أرسالا، عشرة فعشرة، يصلون على الرسول ﷺ أفذاذا، لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولا أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، أو النساء، ثم الصبيان.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملا، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة ﵂: (ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحيِ من جوف الليل، وفي رواية من آخر الليل أي ليلة الأربعاء).

❁❁❁

٣-دروس وعبر من وفاة الرسول ﷺ:

١-كانت هناك عدة رسائل من الله لنبيه ﷺ توحي بأنه قد اقترب من المحطة الأخيرة، حيث الاعتكاف، ومدارسة القرآن مرتين، وحديثه في خطبة الوداع، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ونزول سورة النصر، وزيارته لمقابر شهداء أحد، والبقيع، وصلاته واستغفاره لهم، كل هذه الأعمال تبين في وضوح وجلاء، أن النبي ﷺ في طريقة للقاء ربه.

وقد أدى الرسالة، واكتمل الدين، ودخلت قبائل عربية كثيرة في دين الله أفواجها، فإذا بدأ الله أمرا أتمه في أحسن صورة، وفي أجمل حال.

٢-نزل المرض بالرسول ﷺ ويزداد يوما بعد يوم، وكان يمرض في غرفة السيدة عائشة ﵂ وهي أحب زوجاته إليه، فالنبي ﷺ بشر، يمرض كما يمرض الناس، بل يضاعف له المرض، فيجد من الألم مثل ما يجد رجلين.

وفي الحديث: (أشدكم بلاء الأنبياء) فكانت حرارته ترتفع، ويشتد به الوجع والألم، ويصاب بالإغماء من شدة الإعياء والحمي، وبالرغم من ذلك كله، كان حريصا على الصلاة مع الصحابة ﵃ جماعة في المسجد، رغم عذره الشرعي.

٣-تحذير النبي ﷺ الأمة من مسلك اليهود والنصارى مع أنبيائهم بعد وفاتهم، حتى لا يقعوا في مثل ما وقعوا فيه، وكان هذا التحذير في نهاية حياته حتى لا ينسوه: (فنهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد). ونهى عن (أن يتخذ قبره وثنا يعبد).

فالرسول ﷺ مبلغ عن الله، وهو بشر من البشر، تميز عليهم بالاصطفاء من الله ﷻ بالوحي والرسالة، فليست هناك خصوصية لقبره إلا بالزيارة والدعاء فقط، والعبادة تكون لله ﷻ وحده، وما فعله اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم فهي مخالفات شرعية، يستحق من فعل ذلك أو وقع فيه الطرد من رحمة الله ﷻ لمخالفته ما شرعه الله ﷻ.

٤-حرص النبي ﷺ على أن يعرض نفسه للقصاص، ويعلن ذلك على الملأ، وأمام الجميع، فهذا من أقوى الأدلة، في أن القائد القدوة لا يظلم أحدا، وإذا وقع في شيء من ذلك على سبيل الخطأ أو النسيان، فهو يعرض نفسه للقصاص أمام الجميع.

فلا يوجد في الإسلام أحد فوق القانون، حتى ولو كان رسول الله ﷺ وهذا من عظمة هذا الدين، وهذه الرسالة الخاتمة.

٥-وصية النبي ﷺ بالأنصار وهو في خطبة الوداع، وأمام أكثر من عشرة آلاف مسلم، فهذا دليل على مكانة الأنصار في الإسلام، وعند النبي ﷺ فهم الذين آووا النبي ﷺ وحملوا الدعوة معه، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وضربوا

أروع الأمثلة في التضحية، والحب والإيثار، واستيعاب قلوبهم وبيوتهم للمهاجرين أجمعين.

فقال: (إن الناس يكثرون ويقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، وأوصى من يلي أمور المسلمين، أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم).

٦-عرض النبي ﷺ بنفسه في أنه اختار ما عند الله، ففهم المعنى أبو بكر ﷺ ولم يدركه الصحابة ﷺ فهذا دليل قوي على أن النبي ﷺ تأكد أنه الرحيل عن الدنيا الفانية، وعلى ذكاء أبي بكر ﷺ وسرعة فهمه وتفاعله، وتأثره بالموقف، فهو أعرف الناس بالرسول ﷺ وبكلامه ومقاصده.

٧-ثناء النبي ﷺ على أبي بكر ﷺ في حسن صحبته، وإنفاقه ما له كله على الدعوة إلى الله ﷻ وإشارة النبي ﷺ إلى أنه لو اتخذ خليلا غير ربه لكان أبو بكر، وإنما تبقى أخوة الإسلام ومودته، وأن الأبواب التي تصل بيوت الناس بالمسجد تسد إلا باب أبي بكر ﷺ.

وقوله وهو في مرض موته: (مروا أبا بكر فليصل بالناس) فيه إشارة غير مباشرة للصحابة لكي يتخذوا أبا بكر خليفة بعده، فلا يوجد نص صريح في ذلك، وإنما هي إشارات من بعيد فقط، ليبقى للمسلمين الحرية الكاملة في اختيار الخليفة على مدى التاريخ، فهي ليست بالوراثة أو القرابة، وإنما هي بالكفاءة وحرية اختيار الأمة في ذلك.

٨-خطورة الخلاف والشقاق بين المسلمين، حيث أمر النبي ﷺ وهو في مرض موته أن يكتب لهم كتابا، لن يضلوا بعده، فلما اختلفوا في تنفيذ كلامه، بسبب ما به من وجع ومرض، فقال: (قوموا عني).

وحُرم المسلمون من هذه الوصية النبوية في أخريات حياته، كما أنه أوصى بثلاثة أشياء في غاية الخطورة والأهمية، إخراج غير المسلمين من جزيرة العرب، لأنه يريد أن تبقى خالصة للمسلمين، بعيدا عن الدس والمؤامرات، وأمر بإجازة الوفود تكريما واهتماما بهم، والثالثة محل خلاف، وكلها أمور في غاية الأهمية، وحاجة المسلمين إليها.

٩-وصيته ﷺ وهو في مرض موته بقوله: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله). إشارة إلى أن المسلم عند الاحتضار عليه أن يغلب حسن الظن، ويغلب الرجاء على الخوف، ويأمل فيما عند الله ﷻ من خير ورضا ومثوبة، فالله عند ظن العبد به، وأفضل الظن عند حضور الموت والاحتضار.

١٠-حرص النبي ﷺ على التصدق بكل ما عنده، وإعتاق غلمانه، ووهب أسلحته للمسلمين، فهو يعلم الأمة من بعده أن يقدم المسلم أفضل ما يملك من مال، تقربا إلى الله ﷻ خاصة قبل الوفاة حتى يكون له عمل صالح يختم به حياته، وصدقة جارية تنفعه في قبره، وعند الحساب يوم القيامة، والإنسان يترك ما له كله للورثة، فليكن أحب ماله إليه هو ما يقدمه هو لنفسه، وليس ما يتركه للورثة.

١١-في فجر اليوم الأخير نظر النبي ﷺ إلى الصحابة ﷺ في صلاة الفجر ثم ابتسم وضحك، إشارة إلى فرح النبي ﷺ بما ترك عليه الصحابة ﷺ من وحدة الصف والكلمة والصلاة، وكان هذا هو المشهد الأخير الذي رأى فيه الصحابة ﷺ وهم على أحسن حال، ثم ودع بعدها الحياة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى.

١٢-إسرار النبي ﷺ بالحديث مع السيدة فاطمة ﷺ فبكت ثم ضحكت، فبكت لفراقه، وضحكت لسرعة اللحاق به، وبشرها بأنها سيدة نساء العالمين، وانفعالها مع الموقف بعاطفة البنوة من أبيها، فقالت: (واكرب أبتاه) فقال: (لا كرب على أبيك بعد اليوم). كما أنه عبر عن عاطفته نحو أسباطه، فقبل الحسن والحسين، ودعا لهما، وأوصى بهما خيرا.

١٣-إخبار النبي ﷺ السيدة عائشة ﷺ بألم في جسده، وأثر السم من الطعام الذي أكله بخيبر، فقد كان سببا في وفاته، فهو لون من الشهادة، فجمع بين النبوة والشهادة، وحرصه على السواك في اللحظات الأخيرة، فقد كان من هدية في الحياة، فهو مطيبة للفم ومرضاة للرب، وجمع النبي ﷺ بين ريقه وريق السيدة عائشة **رضي الله عنها** من خلال السواك.

١٤-شُدد على النبي ﷺ في سكرات الموت، فكان يقول: (إن للموت لسكرات) فقد ذاق آلام المرض والحمى، وآلام سكرات الموت، وهو خاتم النبيين، وأحب عباد الله إلى الله عز وجل وشدة البلاء دليل على مكانة العبد عند الله، ومنزلته العالية

في الجنة، واختياره أحسن الكلام، والدعاء ليختم به حياته فقال: (مع الذين أنعمت عليهم، اللهم اغفر لي وارحمني، والحقني بالرفيق الأعلى).

١٥-أثر حب النبي ﷺ في قلوب الصحابة ﷺ، فكانوا يحبونه أكثر مما يحبون أنفسهم، وقد عبر أنس ﷺ عن عاطفة الحب هذه فقال: (حينما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة أضاء منها كل شيء، وحينما توفى أظلم منها كل شيء).

فعاطفة الحب نحو الرسول ﷺ كانت على أعلى مستوى، حتى تمكن حبه من قلوبهم وأنفسهم على سبيل الحقيقة، فكان حبهم له أكثر من حبهم لأنفسهم وأهليهم وأموالهم، فحزنوا على فراقه حزنا شديدا وعبرت ابنته فاطمة ﷺ عن حبها فقالت: (يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه).

١٦-الفهم الواضح، والفقه الوعي عند أبي بكر الصديق ﷺ فحينما سمع الخبر جاء مسرعا، وكشف عن وجهه الشريف، وأكب عليه، وقبله، وبكى وقال: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله) ثم خرج إلى الناس وقال خطبته الشهيرة، وكلماته الخالدة: (من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) فكان أفقه الصحابة ﷺ بالإسلام، وكان هو الحق الذي قبله الصحابة ﷺ برضا وتسليم، وسلم له عمر.

١٧-حسم الصحابة ﷺ مسألة الخلافة قبل دفن الرسول ﷺ في سرعة، وما وقع من حديث وخلاف صغير هذا أمر عادى، وبالحوار الهادئ، والمناقشة الهادفة،

وصلوا إلى الحق والصواب، وهو مبايعة أبي بكر ﷺ فكان رجلا رقيقا بكاءً لينا رفيقا، أقرب الناس ليقبله الناس، بعد وفاة الرسول ﷺ المهاجرون والأنصار، وقبلته قريش رغم ما بها من تعصب، حتى إن أباه تعجب من تسليم قريش له، فكان اختياره هو توفيق الله للأمة، لأنه كان أنسب شخصية لتلك المرحلة.

١٨-قام أقرب الناس للنبي ﷺ على غسله وتكفينه، وقام الصحابة ﷺ كلهم يصلون على النبي ﷺ صلاة الجنازة فرادى، رجالا ونساء وأطفالا، ودفن في موضع وفاته، كما جاء عنه في الحديث: (ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض). فصلوا عليه طوال يوم الثلاثاء، ودفن ليلة الأربعاء، حيث قام أبو طلحة بحفر القبر وتجهيزه.

وفي النهاية وجود قبر الرسول ﷺ ومسجده، والبقيع، وشهداء أحد، وقباء، ومعالم النبي ﷺ في المدينة، ووجود الكعبة، والقرآن الكريم، ومناسك الحج، وكلها أحداث تاريخية باقية، كل ذلك أكبر دليل على صحة رسالة الإسلام، وأنه حقيقة تاريخية وواقعية إلى قيام الساعة.

والحمد لله أولًا وآخرًا الذي بنعمته تتم الصالحات.

❁❁❁

الفهرس

مقدمة.	٣
١. حياة الرسول ﷺ قبل البعثة.	٧
١. نسب النبي ﷺ وعائلته ومولده.	
٢. أحداث ومواقف عَبر حياته قبل البعثة.	
٣. دروس وعبر من حياته ﷺ.	
٢. المرحلة الأولى والثانية من الدعوة.	١٨
١. في غار حراء وانقطاع الوحي وتتابعه.	
٢. الدعوة سرا ثلاث سنوات.	
٣. الجهر بالدعوة.	
٤. دار الأرقم بن إلى الأرقم.	
٣. أساليب المشركين في مواجهة الدعوة.	٢٧
١. السخرية والاستهزاء.	
٢. إثارة الشبهات حول النبي ﷺ.	
٣. الحيلولة بين الناس وبين سماع القرآن الكريم.	
٤. الاضطهادات.	
٥. المقاطعة والحصار.	
٤. هجرتا الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة الأولى والثانية.	٤٢

١. الهجرة الأول إلى الحبشة.	
٢. الهجرة الثانية إلى الحبشة.	
٣. دروس وعبر من هجرتي الصحابة ﷺ الحبشة.	
٥. عوامل الصبر والثبات عند الصحابة ﷺ .	٥٣
١. الإيمان بالله.	
٢. قيادة تهوى إليها الأفئدة.	
٣. الشعور بالمسئولية.	
٤. الإيمان بالآخرة.	
٥. القرآن الكريم.	
٦. البشارات بالنجاح.	
٦. الاسراء والمعراج دروس وعبر.	٦٢
١. حالة مكة قبل رحلة الإسراء والمعراج.	
٢. وصف لأحداث الرحلة والدروس المستفادة منها.	
٧. بيعتا العقبة الأولى والثانية دروس وعبر.	٦٩
١. بيعة العقبة الأولى.	
٢. بيعة العقبة الثانية.	
٣. دروس مستفادة من البيعتين.	
٨. الهجرة النبوية دروس وعبر.	٨١

مقدمة.	
١. النية الصالحة.	
٢. التخطيط الجيد.	
٣. التضحية الغالية.	
٤. المعية الإلهية.	
٩. غزوة بدر دروس وعبر.	٨١
١. سبب الغزوة.	
٢. مسيرة الغزوة.	
٣. أحداث الغزوة.	
٤. من صور الإيمان.	
٥. دروس وعبر من الغزوة.	
١٠. غزوة بني قينقاع دروس وعبر.	٩٨
مقدمة.	
١. سبب الغزوة.	
٢. خط سير الغزوة وأحداثها.	
٣. دروس وعبر من الغزوة.	
١١. غزوة أحد دروس وعبر.	١٠٦
١. أسباب الغزوة.	

٢. خط سير الغزوة.	
٣. أحداث الغزوة.	
٤. مواقف إيمانية.	
٥. دروس وعبر من غزوة أحد.	
١٢. جبل أحد يحبنا ونحبه.	١٢٤
١٣. غزوة بني النضير دروس وعبر.	١٢٩
١. مقدمة.	
٢. أسباب الغزوة.	
٣. خط سير الغزوة وأحداثها.	
٤. دروس وعبر من الغزوة.	
١٤. غزوة الأحزاب دروس وعبر.	١٣٨
١. أسباب الغزوة.	
٢. خط سير الغزوة وأحداثها.	
٣. دروس وعبر من الغزوة.	
١٥. غزوة بني قريظة دروس وعبر.	١٥٠

١. تاريخ الغزوة.	
٢. أسباب الغزوة.	
٣. أحداث الغزوة.	
٤. هم الدروس المستفادة من الغزوة.	
١٦. غزوة بني المصطلق دروس وعبر.	١٦١
مقدمة.	
١. تاريخ الغزوة وأهميتها.	
٢. أسباب الغزوة.	
٣. أحداث الغزوة.	
٤. أثر المنافقين فى الغزوة.	
٥. حديث الإفك.	
٦. أهم الدروس والعبر المستفادة من الغزوة، وحادثة الإفك.	
١٧. دور المنافقين في المدينة دروس وعبر.	١٧٠
مقدمة.	
١. دور المنافقين في المدينة.	
٢. دروس وعبر من دور المنافقين في المدينة.	
١٨. صلح الحديبية دروس وعبر.	١٨٢
١. سبب العمرة أو الصلح.	

٢. خط سير العمرة، وتطور الأحداث.	
٣. ما يترتب على الصلح.	
٤. الدروس والعبرة المستفادة من صلح الحديبية.	
١٩. غزوة خيبر دروس وعبر.	١٩٧
١. سبب الغزوة.	
٢. خط سير الغزوة وأحداثها.	
٣. دروس وعبر من الغزوة.	
٢٠. غزوة مؤتة دروس وعبر.	٢١٤
١. سبب الغزوة.	
٢. خط سير الغزوة.	
٣. أحداث الغزوة.	
٤. دروس وعبر من الغزوة.	
٢١. غزوة فتح مكة دروس وعبر.	٢٢٢
١. سبب الغزوة.	
٢. خط سير الغزوة.	
٣. كيف تم فتح مكة.	
٤. دروس وعبر من الغزوة.	
٢٢. غزوة حنين دروس وعبر.	٢٣٨

١. سبب الغزوة.	
٢. خط سير الغزوة.	
٣. أحداث الغزوة.	
٤. دروس وعبر من الغزوة.	
٢٣. غزوة تبوك دروس وعبر.	٢٥٠
١. سبب الغزوة.	
٢. استعدادات المسلمين وخط سير الغزوة.	
٣. الجيش الإسلامي إلى تبوك.	
٤. دروس وعبر من الغزوة.	
٢٤. حجة الوداع دروس وعبر.	٢٦٢
١. قصد الصحابة صحبة النبى ﷺ فى الحج ليتعلموا منه المناسك.	
٢. استعدادات النبى ﷺ لأداء المناسك.	
٣. خطبة حجة الوداع والدروس المستفادة منها.	
٢٥. وفاة الرسول ﷺ دروس وعبر.	٢٦٨
١. طلائع التوديع للحياة.	
٢. مرض الموت والاحتضار والوفاة.	
٣. دروس وعبر من وفاة الرسول ﷺ.	
الفهرس.	٢٨٤

❁❁❁